رشيد بن عدي

الهروب

رواية

دار الأمان
الرباط

الكتاب : الهروب

المؤلف : رشيد بن عدي

الطبعة : 2017

الناشر : دار الأمان

الإيداع القانوني : 2017مو 0588

ردمك : 978-9954-638-69-5

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الهروب

رشيد بن عدي

رواية

مشاعرنا وأحاسيسنا نحن المنبوذون ، أبشع من أن تصفها الكلمات في رواية أو حتى في قصيدة شعرية..

كنت أعتقد أنه حينما أصل إلى سن معين ، الأمور سوف تبدأ في أن تكون منطقية ، لكن حينها اكتشفت أني كنت تائها تماما كما كنت من قبل.. هذا ما خطر ببالي وأنا في الطريق لمحطة الحافلة. وللمرة المليون أصادف نفس الوجوه المتعبة ، والأجساد النحيلة ، والملامح العابسة ، ابتسامتك في وجه أخيك خطيئة ، لا مجال للابتسام في مدينة الرباط صباحا ، فهي تواجهك و كأنها تعاقبك على ساعات أحلامك القليلة ، هذا إن تبقى لك ما تحلم به! انتشر التعساء على اختلاف وجهاتهم من دون أن يلتفت أحدهم للآخر وكأنهم مربوطون بحبل يجرّهم إلى وجهات عملهم ، أقصد تعاستهم. يبتلعني زقاق و يرميني آخر ، أنتظر الحافلة قبل ميعادها ، تأتي متأخرة كعادتها، الكل يتحاشى النظر في وجه الآخر ، على يميني عجوز استخرج ما في جسمه من سوائل مقززة و بصقها على قدمي دون اكتراث و كأنه لم ينتبه لوجودي! وكيف سينتبه وباله مشغول باللقمة الملعونة.

تتوقف الحافلة التي كانت مملوءة عن آخرها ، الحافلة التي لم تعد صالحة إلا لتلويث الهواء بدخانها الخانق المنبعث من مؤخرتها السوداء، لكنها مازالت تقاوم وتصارع الزمن مثلنا تماما ، توقفت معها تنهدات الركاب الذين شرعوا في التدافع من أجل النزول ، لم

يكن أمامي من خيار سوى التدافع معهم وإلا اضطررت للنزول في المحطة الأخرى، كنت ملتصقا بغيري ، حتى انكمش معطفي أكثر، وتعرض حذائي الأسود للدوس مرات عدة، كدت أختنق حين التصق أنفي بإبط أحد الأفارقة المقزز، شرعت في التحرك للأمام بكل ما أوتيت من قوة في اتجاه الباب استعدادا للنزول معتذرا طوال الوقت عن أشياء لم أفعلها عن قصد، فلابد أن ألكز جسدا أو أحتك بمؤخرة من تلك المؤخرات المتلاصقة من شدة الازدحام..

وقفت وسط ساحة –باب الحد– علّني أهتدي لشيء يدلني على وجهتي، اليد اليسرى تمسك بحزام الحقيبة التي ترافقني أينما ذهبت، واليد اليمنى تمسك بالسيجارة، أنفث دخانها من حين لآخر بهدوء عنيف، ليتني أدري لماذا أبتسم بين الفينة والأخرى، وكأني أشفق على نفسي. الصور والمواقف تتزاحم في مخيلتي، تتدافع في مد وجزر كالموج الهائج، ربما هي سبب ابتسامي الساخرة.

استفقت أخيرا، لأرمي عقب السيجارة التي أحرق أصابعي، تناهى إلى أذناي صراخ صاخب، تنبهت إلى الكم الهائل من الأطفال كالأشباح يلعبون ويركبون سيارات بلاستيكية، تمنيت لو أن لي حيوية الطفولة لأركب معهم لعبتهم الجميلة، لكنني أود حقا لو أكسر تلك السيارات الصغيرة، لا لشيء سوى لكوني لم أعد أملك

الجرأة لألعب مثلهم، و أفعل كما يفعلون دون حرج. أو ربما لأني أريد أن أعيش وراء الزمن، أن أعيش بلا عمر.. لكني لا أستطيع.

في الطرف الآخر من الشارع، لفت انتباهي نساء بثياب رثة، يفترشن الأرض و بجانبهن صبيان صغار ، يتوسلن بعض الدراهم ، يستغلن براءتهم ليجذبن بها عطف أناس لا يمتون لهم بأي صلة، يترجين الغرباء بعد أن خذلهن الأقرباء.. لست أدري هل خذلهن أحد حقا أم هن من اختار هذا الطريق عن طيب خاطر، لكن من المؤكد أن هذا الزمن قد خذلهن كما خذل الكثيرين.

بعد ساعات من البحث عن العمل الذي كنت متأكدا أني لن أجده، قررت العودة أدراجي. في الحافلة التقيت بنفس التعساء و كلهم نشاط وحيوية هذه المرة، يبدوا أنهم استيقظوا كليا وأطلقوا العنان لثرثرتهم التي لا تنتهي:

لا شيء يدهشني بعد الآن.

صاح رجل: لا شيء يدهشني بعد الآن. لا الراديو الممل، لا الجرائد الكاذبة، لا البرامج التلفزية المثيرة للاشمئزاز، لا الثورات العربية الغبية ، و لا حتى زوجتي الخائنة. لا شيء بعد الآن.

أجابت سيدة: وأنا كذلك لا شيء يدهشني بعد الآن. نحن في القرن الثاني و العشرين و أنا مازلت أحارب الأمية العنيدة ، فما

الذي سيدهشني أكثر من هذا؟

حتى أنا، نطق طالب جامعي: حتى أنا لا شيء يدهشني بعد الآن. لقد درست علم الآثار دون أن أجد هوية في الحجارة، هل أنا حقا أنا؟

جندي قال: و أنا كذلك لا شيء يدهشني بعد الآن. طوال حياتي و أنا أحرس الشبح الذي يطاردني طوال حياتي.

صاح سائق الحافلة غاضبا: لقد اقتربنا من محطتنا الأخيرة، استعدوا للرحيل.

أجابوا صارخين: نريد الذهاب إلى ما أبعد من المحطة، فاستمر في القيادة. أما أنا فقلت: أنزلني هنا، أنا كذلك مثلهم لا شيء يدهشني بعد الآن. لكني متعب من التنقل دون جدوى.

توجهت مباشرة إلى البيت دون أن أنظر إلى من حولي، فغالبا ما أنظر إلى الناس و أحاول أن أشعر بهم أكثر من مجرد أشخاص عاديين يمرون بقربي، أحاول أن أتخيل كم هم مغرمون ، وأتساءل عن حجم الأمور التي مروا بها. حاولت الانتقال إلى الجهة الأخرى من الشارع فإذا بي ألمح صديقي إسماعيل، هناك في نهاية الشارع، قرب إشارة المرور يقف و يتأمل، سهمت أتأمله بدوري وهو يحمل سيجارته بين أصابعه، إنسان سكنته الغربة في وطنه فأنسته ذكريات

الطفولة التي حكاها لي عدة مرات، وقف عابس الوجه أمام السيارات ثم أخد يجر خطاه، مشيته تشبه مشيتي كثيرا إذ يخيل إلي في لحظات كأن رأسي قد ارتفع عن لجة الوجود إلى فضاء الخيال فأمر بالحياة مذعنا لا أحفل بمن معي ولا بمعرفة وجهتي.

تابعت طريقي إلى المنزل والجوع يمزق أمعائي.. فتحت لي أمي الباب و استقبلتها بلمعة في عيني ثم أطفأتها بسرعة مبتسما ابتسامة متحسرة. كانت قد جهزت مائدة الطعام و أي طعام، مرق بلحم الدجاج وبعض الفواكه الرخيصة.. جلست مباشرة دون أن أنتظر، مديت يدي و بدأت الأكل و أنا ساهم لا أحس بما آكل و لا بطعم ما آكل، و لم أكف عن الأكل إلا بعد أن لم أجد في المائدة شيئا أمد إليه يدي.

استلقيت قليلا لعلي أغفو لدقائق في غفلة من الوساوس التي تنخر عقلي، وفي غفلة كذلك من أمي المتعودة على توتير أعصابي بأسئلتها وثرثرتها الزائدة، لكن هيهات فسرعان ما سمعتها تكلمني بصوت متجهم:

_ أين كنت؟

_ ماذا تقصدين؟

_ تعلم ماذا أقصد؟

_ لا أعلم شيئا، و إن سمحتِ فأنا أريد أن أغمض جفناي قليلا فأنا متعب.

_ أنت دائما متعب و كأنك تفعل شيئا غير التجوال في الشوارع كالمتشرد.

تقود الدنيا في وجهي، صرت أتنهد ببؤس كلما حثتني أمي على البحث عن عمل، ولكي أشعرها أنني أحاول فعل شيء، صرت أغادر البيت مبكرا، أتجول في الشوارع والساحات العامة بلا هدف غير الابتعاد عن البيت وإشعار من فيها بجديتي لأنهم لن يفهموا أبدا أنني لست سوى قطرة في بحر العاطلين، أولئك الذين يتزايدون كالنمل كل يوم.

بعد سماع كلماتها المشجعة وقفت في الحال و ارتديت معطفي المعتاد.. أرتديه في جميع فصول السنة التي لم أعد أميز فيها بين الخريف و الصيف.. و أنا أهم بالانصراف تقابل وجهي مع وجهي في المرآة و شعرت بشعور غريب و كأني رأيت شخصا مألوفا، وقفت أمامها أتفرسه و أتأمل فيه آثار السنين، لقد تغيرت كثيرا في وقت وجيز.. كنت في زمن مضى أتأمل المرآة كثيرا لأطمئن لجمال القسمات و أناقة الملبس و إلى اللحية التي تغطي وجهي.. وها أنا الآن في منتصف الطريق و الشيب بدأ ينال مني وأصبح يعبث

بشعري حرا طليقا، و التجاعيد قد اغتصبت وجهي فأنجبت شيخا في الرابعة و العشرين.. ها أنا في منتصف الطريق وأذناي لا تسمعان سوى تدمر أمي و تنهداتها و هي تسعى بين الزفير و الشهيق، وأبي يناظرني من بعيد و علامات التعجب تلهث فوق رأسه من شدة التحديق، و إخوتي يحومون حولي فصرت أبتلع ما تبقى في حلقي من جرعات لعاب و ريق، وغرفتي المظلمة أصبحت أدخلها بالعويل لا بالضحك و التصفيق.. ها أنا في منتصف الطريق، قد استنزفني النصف الأول و ما تبقى من عمري في نصفه الثاني قد لا يليق. فبعدما تقطعت بي سبل العمل الذي أريده، صرت أعاني هموما جديدة، منها كيفية الإجهاز على نهار آخر من أيامي التي صارت أطول من ذي قبل، ثم كيفية قضاء ليلة أخرى من تلك الليالي التي طالت و استطالت و حرمتني من نعمة النوم، و حتى ساعات نومي المتقطعة فقد خلت من الأحلام البريئة التي اعتدت نسجها في خيالي من قبل.. لم أعد أحلم.

نعم أنا في منتصف الطريق، لا أريد شيئا و لا أتمنى شيئا، و لم أعد أقدر حتى على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل، فلو عرفت فقط، لو عرفت كيف أنظم زحام هذا الضجيج المنصب داخلي، لو عرفت كيف أحرر الصراخ المحتقن في جسدي الذي لم

يعد جسدي.

استفقت من سهوي و حملت نظاراتي و خرجت من البيت دون أن أعرج على المطبخ كي لا تراني أمي التي مازالت تحاول إقناع الأشباح بما لم تستطع إقناعي به.

في الشارع الكبير مجددا، أرمي خطواتي المتواترة في الاتجاه الذي تختاره، مرة أخرى تزعزع استقراري و غلبتني الرباط، أنظر إلى المارة وأتبع حركاتهم، أتسلق أجسام النساء متعجبا، أغيب عن العالم وأعود في ثواني، أبتسم، أسهم وأعود، يخطر إسماعيل في ذهني بنظراته المنكسرة، حتى إسماعيل تغير كثيرا، أصبح أكثر تيهانا من ذي قبل، لا يستطيع أن يخطو إلى الأمام، ولا حتى إلى الوراء، لكنه يتقدم مبتعدا عن واقعيته.. لم أستصغر قط إسماعيل منذ عرفته، صحيح أنني أحتقره أحيانا تماما كما يحتقرني هو كذالك لكننا معذوران، فهو يغير ماضيه كما تغير الحرباء لونها عبر الأماكن، وأنا أتخلص من هويتي كما يسلخ الثعبان جلده، لكن الحقيقة أننا كما كنا بالأمس وقبل الأمس، تتبعنا تعاستنا أينما حللنا و ار تحلنا.. أعرف مكانه الآن، لكن لن أقابله، سأتركه في وحدته قليلا، أحب وحدته بالرغم من أنه يفضل وجودي بقربه، أتخيله الآن جالسا في مقهى البركة وسط الصدى و النظرات، والرفض كذالك، يجلس في

زاويته الكئيبة لوحده يتأمل كعادته، يمتص سجائره واحدة تلو الأخرى.. المهم أن يعيش و ينحث بأظافره القليل من السعادة المؤقتة.

وجدت نفسي وسط غابة هيلطون ، فعلا سئمت الخروج و المشي لساعات طويلة في هذا الجو المختنق، سئمت التحدث مع الأشباح طوال الوقت، سئمت ركل كل ما يعترض طريقي من أزبال متراكمة وحصى تعبيرا عن توتري، سئمت إرسال اللكمات في الهواء تعبيرا عن غضبي، سئمت كوني فرجة مجانية للمارة الذين يظنون أنني قد جننت.. فأقنعت نفسي بالجلوس، جلست أسترجع أحداث النشرة الإخبارية التي شاهدتها قبل قليل في البيت.

لوهلة نسيت كل مشاكلي و رحت أفكر في مشاكل العالم.. أثارت فضولي تلك الثورات العربية الرهيبة.. يا إلهي ماذا يحدث في مصر، تونس، حتى سوريا؟ ماذا يحدث للعرب؟ هل أعجبوا بالفوضى؟ هل أصبحوا شعوبا تعشق دفئ هذه الفوضى؟ و لما لا يعشقونه.. فهم شعوب عاشت عمرها كله في كبت.. شعوب أجبرتها الأنظمة الحاكمة أن يعيش كل منهم لنفسه فقط.. و إن تعارضت مصالحه مع أخيه قتله دون تفكير.. شعوب شعرت في هذه الثورات بدفء التساوي.. بدفء تساوي الخوف لدى الجميع.. فالكل خائف و

الكل يحتاج إلى صديق.. الكل يحتاج للأمان.. شعوب تنبأت بقدوم العدل و المساواة.. فبهذه الفوضى ظهرت طاقات الشباب المكبوتة.. فأصبح الشاب الذي سئمه سريره ، أثناء هذه الثورة لا يجد للنوم لذة و أصبح يكره أن يرى المكان الذي يجلس فيه في المقهى طوال الوقت.. أصبح له دور يحمي مجتمعه و يتحد معه في المطالب و العدل و المساواة..

اهتز الهاتف في جيبي، نعم هاتفي يرن، و أخيرا شخص ما تذكرني، لا أدري لما شعرت بالفرحة لمجرد أن هاتفي يهتز.. إسماعيل مل وحيدا وطلبني أن أشاركه مللله.

في الطريق، رحت أحدث نفسي في نفسي كالعادة، تساءلت ما الذي يغيظني فعلا؟ هذا الجو المتغير باستمرار؟ رائحة الببوش؟ لا مبالاة أبي؟ ضجيج الناس؟ الحقارة؟ قلة الاحترام؟ الأفكار الغريبة؟ ماذا؟ ماذا؟

حقيقة الأمر أني مغلوب على أمري، لا أريد أن أتمادى في قولي لكنني فعلا مغلوب على أمري. فأنا مجرد رجل حزين، حزين إلى أقصى الحدود، فبعدما أصابتني صاعقة الشغف و سافرت بي إلى أقصى الحلم، ارتطمت بالواقع و لم أعد من ذلك الحلم أبدا. أو على الأقل لم أعد في حالة إنسانية مقبولة، أنا رجل ذو أسرار

مشوشة، ذو نظرة منكسرة، رجل ينتظر أن تهدأ ناره.. لكن إلى متى؟

_ كنت أعلم أنك ستتأخر

_ آسف.. بعض الأشخاص لا يتغيرون

_ فلنغادر هذا المكان

_هاتي سيجارة إذن

_ تفضل

استلمتها و رمقتها بنظرة متلهفة، أشعلتها بسرعة ليواصل دخانها زحفه و تحالفه مع أعصابي ضد جسدي الهزيل، فنعم الرفقة و نعم الصديق.

كانت الشمس قد رحلت ببطء، باحثة عن مكان آخر غير هذا المكان، عن بلد غير هذا البلد، حلت الظلمة فبدت المدينة أجمل الآن، أخذنا نمشي كعادتنا، لم تكن نظرات إسماعيل معبرة كفاية، نظراتنا التائهة و صمتنا القاتل، تباطئنا في المشي حولنا إلى شبحين غريبين.

اليوم لم يكن إسماعيل الشخص الذي أعرفه، لكنه جسده فقط، من وراء صمته وخلف ستائر ماضيه وحاضره التعيسين مع أم قاسية و أب غائب و بعد شرود واضح، انتبه أنني صامت كذالك على غير

عادتي، جلسنا القرفصاء بالقرب من ثانوية أبي بكر الصديقبدأنا ندخن السجائر العرفية ، هكذا نسمي الحشيش . و بعد أخذ نفس عميق، رتب أفكاره و بدأ يتكلم لكن بصوت كسير:

_ تذكرت ونحن نجلس هكذا، أيام الصغر، أيام نحن إليها رغم قسوتها.

_ أنا لا أحن إليها على الإطلاق، أنا أريد أن أشيخ و أغادر هذا العالم بسرعة.

_ شر البلية ما يضحك يا صديقي، لقد جربت كل شيء في حياتي، جربت جميع أنواع العصيان، جربت العمل المضني بدون فائدة، سنين من عمل لا أطيقه و ما النتيجة؟ لا شيء.. تمر سنة لتجدني أخرى في نفس المكان. اللعنة.

_ هذا لأنك تعيش فقط ولا تجري وراء حلم معين..

_ هذا الحلم الذي تواسي به نفسك يا زياد، كان هو بصيص الأمل الوحيد في حياتي لكن كل شيء يذهب أدراج الرياح يا صديقي، شئت أم أبيت، لقد سبقتك بمسافات طويلة وبعيدة، و أنا الآن أقف في نهاية الطريق انتظرك حتى تنتهي من بناء حياتك الوهمية.

صمت قليلا وأضاف: دعنا ننسى أخطاء الماضي و نرتكب أخطاء

جديدة، أخطاء كبيرة، دعنا نخرج عن القاعدة، لقد سئمت أن أكون جزءا من هذه الفئة المتوسطة الفظيعة الضعيفة من الأكثرية المستسلمة لأمر الواقع. لما لا ننتقد الحكومة؟ لما لا نقول بصوت مرتفع أنها حكومة فاشلة؟

_ بصوت مرتفع؟ هل جننت؟ اخفض صوتك رجاءً ، فكيفما كان الحال، أفضل أن أنام في البيت، لا في السجن.

_ اووووه! أرجوك لا تكن من الأغلبية التي تغمغم عدم الرضا بدون أي رد فعل.

_ حسنا! إن كان هذا ما يفعله العاطلون فلما لا! فلننتقد الحكومة، فأنا لا أثق بها على أي حال وسيصدم فيها المغاربة فيما بعد سترى..

_ هذا ما أريد سماعه، طوال حياتي و أنا أعمل بجهد و عناء دون جدوى! لدى ابتداءا من اليوم سأعيش كما أريد.

لوهلة خطر ببالي أن دفئ تلك الفوضى قد شق طريقه إلى هذا البلد التعيس، إلى المغرب الذي نحبه و يؤلمنا، إلى المغرب الذي تنقصه الجرأة والحمق، إلى المغرب الغامض. يبدو أن صديقي هذا بدأ يشعر بذلك الدفء الجديد و لم يعد يستطيع تحمل تواطئات هذا البلد، و هذه التوازنات الصغيرة المحققة في دفئ بارد يصيبه بالحزن و الأرق

و الغيظ..

_ ما رأيك لو نبدأ الثورة ؟ أنا و أنت؟

_ ماذا ؟ الثو...! هل جننت؟

_ نعم لقد جننت

_ لكن هذا سيعتبر انقلابا و ليس ثورة! أتدري ما هو الانقلاب؟

_ نعم أعلم

وصل بي اليأس وقلة الحيلة إلى درجة أن الفكرة أعجبتني و رحت أحدث نفسي.. لنفترض أننا قمنا بما يسمى الثورة.. إذن هناك إمكانية و لو مستحيلة أن أصبح رئيس الدولة باعتبار أن الثورة ستحول الحكم الملكي إلى الجمهوري.. و نحن أولى بالرئاسة لأننا نحن من بدأ الثورة من أولها. لكن كيف سنبدأ و نحن اثنين فقط؟ من سيحرق نفسه؟ فهكذا بدأت في تونس.. ليس أنا طبعا.. فكيف لي أن أصبح رئيسا إن أحرقت نفسي؟ و من المؤكد أنه حتى هو لن يحرق نفسه.. ففي الأخير نحن سنفعل هذا من أجل أنفسنا لا من أجل شخص آخر.. لابد أن أسأله..

_ أتعرف كيف بدأت الثورة في تونس؟

_ لا.. فأنا لا أشاهد التلفاز كثيرا

_ شخص ما أحرق نفسه! هكذا بدأت..

_ يا للغباء! ماذا سأستفيد إن أحرقت نفسي؟

همست.. لننتقل للخطة ب: أي أن نجمع ثلة من الأشخاص المتعصبين و الغاضبين على الحكومة و ما أكثرهم.. مستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل التغيير و لأجل عائلاتهم و أولادهم و من أجلنا نحن الاثنين كذلك.. سنتزعم هذه الفئة و نقوم بإصدار الأوامر و الإرشادات من بعيد تجنبا للاحتكاك برجال المخزن باعتبارنا العقل المدبر لهذه العملية المثيرة.. تبدو خطة مجنونة و معقولة و أنا أبدو كأحد الأشرار في الأفلام! لطالما أحببت الأشرار بالرغم من أنهم يموتون في النهاية.. لكنه أفسد خطتي مجددا حين تكلم:

_ أتعلم لقد كنت أفكر...

_ عفوا !

_كنت أفكر.. قد نستغل تلك الفئة التي تتظاهر كل يوم أمام البرلمان لكن..

_ تبا لك

_ ماذا ؟

_ لقد كنت أفكر في نفس الطريقة..

_ لا تتسرع يا صديقي، لأننا سنحتاج إلى تلبية حاجياتهم من أكل

وشرب و إسعاف إلخ... و بما أنك عاطل مثلهم و أنا لن أتحمل النفقات وحدي، فالخطة فاشلة.

أمضيت الليل في نوم متقطع و أنا أفكر في طريقة ما لنبدأ بها مهمتنا الجديدة. أخيرا لدينا هدف نسعى وراءه بالرغم من أننا لسنا ولم نكن يوما ضد الملكية، ولكن بما أننا من هذه الفئة التي تحس بعدم الرضا فليس من الغريب أن تأتينا أفكار مشوشة كهذه، والحقيقة أنه لو سمع أحدهم حديثنا لكانت نهايتنا وخيمة..

الخامسة صبحا، استيقظت على صوت ديك الجيران الذي تابع تقاليد الصياح منذ وجد نفسه وحيدا مع بدايات الضوء، ندمت لأني قررت أن أنام في السطح تفاديا لأي احتكاك مع أمي في الصباح، لكنها على الأقل لن توقضني في الخامسة كما فعل هذا الديك الغبي، أحيانا أتساءل لمن يصيح في هذا الوقت و في هذه الأنحاء المقرفة يا ترى؟ ربما يصيح فقط ليشفي غليله من ليل سابق، ربما يصيح لنفسه لا لأحد آخر.

فتحت عيناي في الظلمة و قد فارقني النعاس، و عندما أيقنت أني لن أستطيع العودة للنوم، أزلت الغطاء عن وجهي ورحت أفكر، الأفكار السوداء تأتي في الصباح الباكر، لحظات وظهرت أولى أشعة الشمس، شعرت وكأني أول شخص تلمسه هذا الصباح، أحسست

بها تداعبني بلطف وأنا مكوم على نفسي يغطيني غطاء خفيف، فتحت عيناي بصعوبة، المكان هنا كضاحية في سوريا المدمرة وليس سطحا في إحدى حارات الرباط العاصمة، الشمس تعانقني وتلمس وجهي وعيناي المتعبتين من الأرق الذي سيطر علي طول الليل، بقيت ممدا والغطاء يغطي الجزء السفلي من جسدي فقط. الشمس لم تكن تعلم ما أعاني منه من توتر ووحدة وأرق فتركتني، راحت لتداعب أجسادا أخرى غير هذا الجسد، أما أنا فقد كنت سعيدا برحيلها ودفنت وجهي في الغطاء مجددا، محاولا أن أمسح الأثر القليل من النوم المتبقي في عيناي، خنقني الغطاء الملعون، فأزلته بعنف، فوقي يطير سرب من الحمام في غبطة لا متناهية، رحت أراقبه بصمت، تمنيت لو أمد يدي وأتمسك بجناح إحداها فتطير بي وترميني في أبعد مكان عن هذه الأرض الملعونة، تمنيت لو تنتشلني مما أنا فيه من تعاسة وصراع داخلي عنيف. رفعت يدي لأزيل بعض الشعيرات التي سقطت من رأسي على وجهي، أدركت أن شعري الكثيف لم يعد قويا كما كان في السابق، أنزلت يدي إلى وسطي فشعرت بتكور بطني وزيادة الشحم واللحم في صدري، كنت أعلم أن التغيير الطارئ لم يقتصر على هذين العضوين فقط، بل امتد إلى أعضاء أخرى. أعتقد أن الزمن قد بدأ يلعب معي لعبته الحقيرة التي

لا تعرف الرحمة ولا الشفقة. نظرت للساعة، قاربت الثامنة، نزلت إلى غرفتي ليعاودني ذلك الإحساس بالقلق من جديد، قلق عميق و طاغ لا أعرف مصدره، أريد فقط أن أبتعد عن هذا البيت حيث لا يحدث أي شيء مهم، أريد أن أفر بعيدا متبعا أفكاري الغريبة، أكشف جمال الرباط، أفاجئه و أتمتع به، أعطيه شيئا من الجنون الذي يجري في دمائي، شيئا من الجرأة المسجونة بداخلي. أريد فعلا هجر هذه الحياة المحدودة، أريد هجر أهلي أو الآخرين كما أناديهم لأعبر عن تقززي و عدم احترامي و عدم طيبوبتي، إنهم لا يستحقون هذه المعاملة لكني لست ظالما، إنه أمر لن يفهمه إلا أمثالي، أعرف ذلك، لكن ما العمل حينما يصيب الصدأ كل شيء، حين يسود الجو المشحون بالغضب و اللامبالاة؟ ما العمل لإعادة المياه إلى مجاريها، لإعادة الحياة في هذا البيت لشعلتها السابقة، والتي لم تعد تظهر إلا قليلا. لقد أصبحت علاقتنا باردة جدا يصعب التعليق عليها، لا أحد يفهم الآخر، الأصح أنه لا أحد يريد أن يفهم الآخر، كل في طريقه.

أشعر بالذنب.. أشعر ببؤس شديد يلازمني كظلي و يظهر حتى في الظلام، إنني أحقد على نفسي لوصولي إلى هذه الحالة، ما الذي اقترفته لأصل إلى هذه الحالة؟ أو بالأحرى ما الذي لم أفعله و كان

من الأجدر علي فعله لأتجنب الإحساس بهذا الانحطاط الذاتي؟
أتذكر أني كنت أساعد أمي في الأعمال المنزلية منذ نعومة أظافري، أتذكر أني كنت طفلا ذكيا و لطالما حصلت على المراتب الأولى، فإن لم يفخروا بي في الصغر فكيف لي أن أنتظر منهم الفخر وأنا كبير!

أعترف أنه كان ينقصني الحزم، لقد تركتهم يفعلون بي ما أرادوا، تركتهم يفعلون ذلك عن كسل و ليس عن إرادة و ثقة فيهم، كنت أعتمد على ذكائهم، و حشمتهم و قدرتهم على إدراك رفضي لطريقة تعاملهم معي و مع الأشياء بشكل عام. كنت ساذجا وغبيا، كان علي أن أنتفض منذ زمن بعيد، منذ أول يوم أنهيت فيه الدراسة بالرغم من أني لم أدرس ما أردت، كان علي أن أواجه أبي وجها لوجه قبل فوات الأوان.

أخذت كتابي من فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، دون أن أنسى النظارات السوداء ، سرت دون أن أحدث صوتا إلى الباب الخارجي..

صباح الخير أيها الحزن..

في الشارع المقفر طالعتني الفيلات الفخمة.. الكل نيام.. يحق للأغنياء النوم ملئ الجفون.. فهم يستحقون راحة البال.. الغريب

أنه لم يسبق لي أن استيقظت في مثل هذا الوقت المبكر منذ أيام الدراسة، لكن من يدري! ربما هناك سبب جعلني أستيقظ في مثل هذا الوقت، فلا يمكن لفكرة الثورة أن تثيرني لدرجة الاستيقاظ باكرا.. فهي مستحيلة من أصلها.

كل ما أريده الآن هو رائحة القهوة.. لا أريد غير رائحتها.. رائحتها لأتحول من زاحف إلى كائن.. لأوقظ حظي في هذا الوقت، ويقف على قدميه، لنمضي معا في الشارع بحثا عن مكان آخر.. أو ربما عن فرص أخرى قد تغير مجرى هذه الحياة المملة.

كنت أدور في مكاني كالأبله، صرت أبلها، ربما يعود الأمر إلى الملل، فالملل يحول الإنسان في الغالب إلى بهيمة، لقد فقدت كل تمييز، تبعت طريقا، درت حول بناية مهجورة، كان هناك حارس هيئ له منزلا من لا شيء، لا أدري كيف ينام في هذا الصندوق! ربما ينام واقفا! و كان هناك غسيل نشر ليجف بين النوافذ، ترى من يسكن مثل هذه الأماكن؟ و ما شأني أنا! بقيت أدور، استغرق ذلك ساعة كاملة لأجد نفسي في نقطة البداية! تبا ماذا أفعل هنا؟ جلست على جانب الطريق محتارا ماذا أفعل عندما اقترب مني رجل غريب:

_ عفوا! ألديك ولاعة؟

_ تفضل..

تجنبت الحديث معه فالغباء مكتوب على جبينه، و قد يزيد من تعاستي في هذا الصباح بكلام تافه، توجهت إلى إحدى المقاهي، ارتشفت كأسا من القهوة السوداء و دخنت سيجارة وجدتها صدفة في جيب معطفي، لحسن حظي أن أمي لم تعد تلمس ملابسي! أحسست براحة ملحوظة ، بدأ عقلي يستيقظ من سباته، لما لم أفعل هذا منذ البداية! لكني مازلت أحس أن القلق يحاصرني من كل جانب، و يطبق علي بشراسة، فلا أجد منه خلاصا إلا بإطلاق العنان لمخيلتي الجامحة، فتحملني الذكرى على جناحيها و تطير بي في ضباب ذلك الماضي القريب، ها أنا ممدد على السرير في غرفة لا يعرف أحد بوجودها سوانا، و هي ممددة بجانبي و أنا غارق في جحيم القبل، أحتضنها بقوة، تلك الجميلة الدافئة ذات الشعر الناعم المنسدل، أعبث بجسدها الهائج الذي يفتش عن الارتواء، أمسك يدها الناعمة وأمررها على حيواني المشتعل لأفرح بجسمي و أنتشي بذكورتي.

أحسست بالتعب يهدي إلى جسدي و بالضيق يخنق نفسي، بالرغم من أني لم أقم بأي مجهود يذكر سوى الجلوس في هذا المقهى الممل.. لدى قررت زيارة صديق قديم لي لم أراه منذ زمن بعيد،

قررت زيارة البحر.. مشيت بخطى سريعة، الطريق مازال خاليا تماما من المارة، عيناي تتطلعان بفضول إلى الفيلات الفاخرة التي يتوفر أصحابها على جميع ضروريات الحياة و حتى على كمالياتها، بما في ذلك الكلاب التي يلاحقني نباحها كلما سمعت خطواتي، إذ يخيل إلي أحيانا وكأنها تقول: ابتعد من هنا أيها المنحوس، فأمثالك ليس مرحبا بهم في هذه الأنحاء..

انعطفت عدة مرات يمينا و شمالا، حتى وصلت إلى محطة الحافلات لألتقي هناك بنفس البؤساء الذين لا يكفون عن الشكوى و التذمر و كأنهم يشفقون على أنفسهم و يبررون لأنفسهم أشياء لا تحتاج للتبرير، ركبنا الحافلة متزاحمين كالعادة، نشتم روائح بعضنا البعض، الكريهة منها و الزكية، و إن كان حظك سيئا كيومك فقد تجد وجهك تحت إبط أحد الأفارقة، لا أريد أن أكون عنصريا لكن رائحتهم مقززة فعلا، نعانق بعضنا البعض رغما عنا، من كان واقفا على جانب الطريق و رأى منظرنا في الحافلة قد يستغرب من أين أتى كل هذا الود..

و أخيرا لاح لي المقهى، أمامه يتمدد البحر باسترخاء مرسلا هديره الأبدي ورائحته المنعشة، تخطيت الرصيف صاعدا بضع درجات، لأسمع صوت أمعائي تغرغر من الجوع، تذكرت أني لم أتناول شيئا

منذ البارحة! دخلت المقهى، أحسست بدفء المكان، أثارت انتباهي رائحة الخبز التي يعبق بها البهو الفسيح، اخترت لي مكانا قرب النافذة لأستمتع بمنظر البحر، حياني النادل و انحنى يمسح الطاولة أمامي، و قال مبتسما:

_ كالعادة ؟

_ لا.. أشعر بالجوع، أحضر لي شيئا آكله.

لاحظت أنه نفس الشخص الذي كان يعمل في مقهانا المعتاد، و كأنه أحس هو كذلك بتعاسة و قرف ذلك المكان و تحول إلى هنا.

وضع أمامي كأسا من الحليب و الشكولاطة، و قطعة خبز بها بعض المربى والزيت، و انصرف مبتسما كعادته.. بدأت أتناول فطوري ملتفتا هنا و هناك، المقهى مازال خاليا من الناس، عيناي تتيهان خلف النافذة الكبيرة، أنظر إلى البحر وأمواجه المتكسرة على الشاطئ المقفر، ليس هناك سوى بعض الصيادين الأشقياء، و بعض العشاق المحبين لرياضة المشي.

تذكرت كتابي الذي أحمله منذ الصباح و لم أقرأ منه و لو بضع كلمات، بدأت القراءة بعد أن أنهيت الفطور، غرقت في أحداث القصة و شخصياتها متسائلا إن كانت أحداث هذه القصة حقيقية! إذن فهناك من هو أتعس مني! يبدوا هذا مطمئنا و أنانيا

في الوقت نفسه، لكني لابد أن أترك هذه التعاسة التي تقتلني ليجدها شخص آخر.

عدت أنظر من خلال زجاج النافذة.. البحر مازال يهدر صاخبا، مرددا قصته التي لا تنتهي.. الأمواج ما زالت تجري لترتمي مرهقة على الرمال.. العشاق اختفوا.. الصيادون غيروا أمكنتهم و لكنهم ظلوا يرمون بقصباتهم منتظرين.. من الجانب الآخر لفتت انتباهي امرأة عجوز، تتحرك ببطء وسط الصخور، شبه عارية، لا ترتدي سوى سروال داخلي رمادي، يبدو و كأنها تستحم من مياه البحر، و تغسل ملابسها من نفس المياه لتنشرها فوق الصخور، أخذت أتأملها من مكاني.. تبدوا تعيسة جدا مثلي.. لكنها على خلافي حرة تفعل ما تشاء دون أن تبالي للآخرين.. و كأن العالم ملك لها، لا تحتاج إلى مكان خاص بها، تلتفت جهتي و كأنها تعلم أني أنظر إليها ثم تكمل استحمامها، و كلبها يجري هنا و هناك، ينتظرها حتى تنتهي..

شعرت بفضول غريب و سألت النادل:

_ من تكون تلك العجوز ؟

نظر حيت أشرت، و دقق النظر، اه، إنها عجوز أمازيغية، يقولون أنها تعيش بالشاطئ منذ سنوات..

_ ماذا لو تحدثت معها؟

و كأنه فوجئ بسؤالي ثم أجاب:

_ لا أنصحك بذلك ثم انتبه إلى تصفيق أحد الأشخاص في الطاولة المجاورة، فانصرف.

غادرت المقهى، فأحسست بانتعاش و برودة خفيفة، ألقيت نظرة خاطفة على الشاطئ مجددا، لا شيء تغير، العجوز تظهر بوضوح الآن، تحرك يدها في الهواء، و كأنها تكلم كلبها، صوت البحر يحجب صوتها، لكنه سمعها و راح يجري نحوها..

إرهاق مفاجئ هاجمني بعنف، فأصاب ذهني ببلادة فظيعة لم أستطع معها أن أفكر في شيء و لا فعل أي شيء، و ضعت الكتاب في يدي اليسرى، و أشعلت سيجارة و تركتها تحترق بين أصابعي، و تحترق معها أعصابي، أعب منها أنفاسا سريعة متتابعة قبل أن أسحقها برجلي كما يسحق الصرصار. توجهت إلى مكاني المفضل، و هو صخرة مسطحة ضخمة تطل على البحر، و تناطح الأمواج بجذورها المغروسة في الماء، فيتخلف من ذلك رذاذا باردا و منعشا يتطاير في الفضاء.. إنها الحادية عشر و البحر مازال يهدر هائجا، و الأمواج البيضاء تجري بسرعة و بدون ملل كخرفان مذعورة لترتمي على الرمل المبتل في الجانب الآخر. الهدير الصاخب يملأ مسامعي

مختلطا بمواء بعض القطط التي تتجول في الأنحاء علها تجد شيئا تنقض عليه.

جلست وحيدا صامتا، ألقيت برجلي أمامي في استرخاء، ثم تمددت بظهري على الصخرة الباردة، آنذاك شعرت بكل شيء لم أشعر به من قبل، و كأني ابتداء من الآن فصاعدا لن أشعر بأي شيء جديد، فقط بمجرد أجزاء مما شعرت به من قبل، لم أدرك كيف داهمني شعور غريب حينما سمعت دقات قلبي و هي تتردد على الصخرة في أذني، تلك النبضات الحقيقية لهذا القلب الحزين، شاهدة على تدحرج لحظات عمري في متاهة الزمن، و انفلاتها من قبضتي دون أن أستطيع إيقافها أو التحكم فيها.. غمرتني مجددا موجة من اليأس، و مرت على قلبي سحابة حزن أظلمت لها جوانب نفسي، الزمن يضيع من يدي بلا رجعة حتى ولو حرصت على التمسك به، حتى ولو أني ما زلت صغيرا في العمر و المستقبل كله أمامي، لكن أي مستقبل و أنا لم أعد أرى ولو بصيص أمل يشرق من بعيد.

الجميل في البحر هو أن هديره الصاخب المختلط بصراخ النورس يدغدغ أعصابي و ترتخي أوتار نفسي المشدودة، ليتعلق بصري بالسراب الأبيض هناك في تلك السماء الزرقاء البعيدة، آه كم هو

جميل ذاك السراب، لا أحد يستطيع أن يصل إليه، وكم تمنيت أن أكون برفقته و أصير واحدا منهم، أطير في السماء الشاسعة، لكن سرعان ما تظهر تلك النقطة السوداء مجددا، تلك النقطة التي تلوح في الأفق، تتحرك بسرعة، و تكبر شيئا فشيئا، لتكشف عن شبح أسود على شاكلة إنسان.

الشبح يملأ علي الفضاء بثيابه الرثة و المتسخة في جانبه الأيسر و الأنيقة النظيفة في جانبه الأيمن، يتبعه كلب أسود، مفتوح الفم، متدلي اللسان، له ثلاثة أرجل فقط! عجبت كيف يسير هكذا.. ما إن انتبه الكلب لوجودي حتى بدأ بالنباح، في حين ظل الشبح يبتعد عني بلا مبالاة.. و كأنه لم ينتبه لوجودي، أكيد أنه لم يرني و إلا لحياني كعادته، من بعيد على الأقل، ناديت عليه: أيها الواقع! لم يلتفت إلي، إنما تابع سيره.. بدأت أصيح بأعلى صوتي، أيها الواااااقع! هاااي ! أيها الواا.... لكنه تابع سيره، حاولت اللحاق به لكن رجلاي خانتني.. أردت فقط أن أستفسر سبب قدومه في مثل هذا الوقت على غير عادته، فغالبا ما يأتيني بالليل و يحرمني من لذة النوم.. استمر في الابتعاد حتى اختفى عن الأنظار، لست أدري كيف يفعل هذا، يظهر في الفراغ و يختفي في نفس الفراغ.

رن الهاتف.. إنه إسماعيل، لقد نسيت أمر الثورة! لقد نسيت فعلا..

_ أين أنت؟

_ في المقهى المقابل للبحر..

_ أنا قريب سأصل بسرعة..

ماذا يريد يا ترى؟ هل وجد حقا حلا لنبدأ به مشروعنا الجديد؟ لا أعتقد ذلك! فقد فكرت في جميع الاحتمالات الممكنة و المهمة غير ممكنة.. أو ربما فكر فيما فكرت فيه! ربما سنفعل ما يفعله جميع المغاربة.. سنتظاهر باللامبالاة، سنتظاهر بأن الأمر لا يعنينا.. سنستمر في التنفس فقط حتى يحين انتقالنا إلى العالم الآخر.

أتساءل أحيانا هل حقا يعرف البسطاء مثلنا أننا نعيش في عالمين في مغرب واحد؟ مغرب في الأعلى و الآخر في الأسفل! إذ أن أي اتصال بين العالمين خطير جدا ومحرم بالكامل.. ففي الأعلى حيث الثراء و الازدهار يعيشون في أمن و أمان و رفاهية! بينما نحن هنا في الأسفل نحاول التضحية بحياتنا لنسرق أتفه الأشياء من الأعلى لننجو من قسوة الحياة.. و غالبا ما ندفع الثمن غاليا كلما تم القبض على أحدنا هناك.. فشعارهم هو: نحن لن ننزل للأسفل، و بالتأكيد لا نريدهم هنا.

ليس لدينا شيء هنا في الأسفل.. هكذا هو الوضع.. ليس لدينا شيء.. و مهما حاولنا اختراق عالمهم و نحظى بالقليل من

الاحترام، إلا أنهم دائما ما يتصدون لنا، كل ما نريده هو أن نعطي لحياتنا أملا من نوع ما يوما ما.. لا شيء بيدنا ، فقد حاول غيرنا من قبل وفشلوا بعد أن فعلوا كل شيء، أحرقوا أجسادهم و صرخوا بكل جوارحهم لكن هيهات أن يسمع صراخ النمل! وحتى إن نجح أحدهم في الوصول إلا أنهم سرعان ما يسحقونه قبل أن يعتاد الأجواء هناك و يصير واحدا منهم.

_ آسف على التأخر

_ لابأس، كل شيء بخير؟

_ و منذ متى ونحن بخير؟

_ أقصد هل ساءت الأمور أكثر؟

_ لا لا! إنها على حالها، فقط أردت التحدث عما قلته أمس و أعتقد أنه من الأحسن لنا أن.....

_ أعلم ما ستقول، لقد فكرت في نفس الشيء.

_ إذن هذا هو الأمر؟ سنتركهم يفوزون مجددا؟ سنرمي أحلامنا البسيطة ونستمر في التنفس دون جدوى؟

_ نعم.. ما أبسط أحلامنا لكننا ولدنا في زمن بخيل..

_ من الصعب أن أتقبل أنني لن أحلم مجددا! كنت ساذجا لأعتقد أن بمقدوري أن أحلم كيفما أشاء..

_ ماذا سنفعل الآن؟

_ سنعود إلى حياتنا و عالمنا البائس، و نحاول هنا في الأسفل أن نفعل أفضل ما لدينا لكننا لن ننسى أبدا ما فعلوه بنا..

_ نعم لن ننسى، فلا يعقل أن يعيشوا في الجنة و نحن في هذا الجحيم.

_ الجنة! لا أعتقد ذلك يا صديقي، ربما هم أغنياء، لكنها ليست الجنة تماما.

_ إذن سنترك الأمر بهذه البساطة؟

_ بهذه البساطة

_ اعذرني إذن! سأنصرف فالحبيبة الجديدة بانتظاري.. سأشرح لك فيما بعد.

_بالتأكيد.. تفضل

بقيت وحيدا مجددا، يبدوا أن أيا من كان بصحبتنا فنحن وحيدون.. عدت إلى المقهى و ارتميت على الكرسي متنهدا من شدة الإعياء.. طلبت عصير برتقال بارد، أبلل به فمي الجاف، و أضعن به هذا العطش الحارق.. فمنذ الصباح و أنا أمشي على الشاطئ و أتنقل بين الصخور باحثا عن... في الحقيقة لا أدري عما كنت أبحث.. قررت أن أنتظر في المقهى لعل الأمور تتغير

لوحدها فالمكان هادئ هنا.. نظراتي تتيه خلف النافذة الكبيرة، البحر مازال يجري وفوقه تتمدد سماء زرقاء صافية..

أيها الحظ، ها أنت تحوم حولي، أحس بك ترفرف في دواخلي كطائر تائه يبحث عن مخرج من قفصه الجميل، أيها الحظ!

ناشدتك الله ألا تتأخر، فقد اشتقت إلى السعادة كثيرا، حتى يئست من لقياها، تلك السعادة التي غابت عني و أنا أترقب خوفا من الغد المجهول.. تلك السعادة الفياضة التي أريدها أن تمكث و لو للحظات قليلة.. تلك الجميلة التي ما أن تحل لبرهة حتى تعتزم عودة أدراجها.. ما أسرع رحيلها خصوصا لما تداهمني تلك الفكرة المزعجة، فكرة الزمن الذي يمضي دون أن يعود..

تفقدت الساعة.. إنها الثانية زوالا.. غادرت المقهى بعد أن دفعت ثمن العصير، بذلك استنفذت آخر سنت لدي، ودعت البحر ووعدته أن نلتقي في فرصة قادمة، هنا أو بمكان آخر.. صعدت بضع درجات و عبرت إلى الشارع الرئيسي، شرعت أصعد عقبة قصيرة، و ما كدت أنعطف يمينا حتى وجدتني أتوغل تدريجيا في كم هائل من الناس يزدادون عددا كلما تقدمت.

لست أدري لماذا قفزت في خاطري دفقات من شعور طارئ غريب، أخذ يلح علي حتى جعلني أعود إلى كآبتي، وما لبثت موجة ذلك

الشعور أن انزاحت في قرارة نفسي، مخلفة آثار قلق مبهم لا أعرف مصدره، حاولت تحديد السبب الذي عكر علي صفوي، فلم أجد سببا واضحا، ربما لأني عائد إلى مقر سكناي، ذلك المكان الذي يكفهر له وجهي كلما عدت إليه.

لم يتبقى لي المال لركوب الحافلة، فعدت أدراجي معتمدا على رجلاي، مشيت بخطوات متسارعة حتى وصلت إلى البيت، دفعت الباب الأول، ثم أدرت المفتاح في الباب الثاني، خطوت إلى الداخل، خيل إلى أني داهمت شخصا على حين غفلة فأسرع متواريا في مكان ما، محدثا حركة مفاجئة تركت وراءها هبة برد باردة و خفيفة، مرت بي كصفعة خفية لامست وجهي، خفق قلبي بعنف حتى جف لساني لتضربني قشعريرة خبيثة في ظهري، ووقف شعر لحيتي حتى أحسست وكأنه سينتزع مني، فكرت أن أعود أدراجي لكني لمحت أخي، تبا إنه أخي ياسين الذي يصغرني بثلاثة سنوات.. هذا ما كان ينقصني! كعادته استغل فرصة كونه وحيدا في البيت ليفتش بين الأغراض عله يجد درهما أو اثنين، يشتري بها سيجارة ويدخنها خفية عنا، لكني اكتشفت أمره.

تنفست الصعداء و ارتميت في السرير، أغمضت جفناي لأرتاح قليلا، فجأة أحسست بيد تربت على كتفي، فتحث عيناي، فإذا

هو واقف أمامي. وقفت محاولا الهرب، غير أن رجلاي خانتني، ماذا حدث لرجلي! لا أستطيع تحريكها، تعثرت و سقطت تحت السرير، اقترب مني و أمسك بيدي، حاولت الصراخ من شدة الذعر، لكني لم أستطع، ما بال أعضائي؟ تفقدتها فوجدتها كاملة: عشرة أصابع تحت و عشرة أخرى فوق، عينان متعبتان، أذنان، أنف طويل و أصبع في الوسط، أما القلب فإني أسمعه يخفق بقوة . أمرني بارتدا ء ملابسي بسرعة لنلحق بالجنازة، جنازة من؟ لم يرد بل جرني بعنف في كتفي، وجدتني أمشي خلفه بخطوات سريعة كي نلحق بالجنازة المزعومة، رؤوس صلعاء تظهر من بعيد تحمل نعشا خشبيا في صمت قاتل، من هؤلاء؟ ومن الذي مات؟ لا أحد يجيب بل استمروا في المشي. توقفت فتوقفوا جميعا، وضعوا النعش أرضا فبدؤوا يحفرون القبر، لم أفهم شيئا بعد فجعلت أراقبهم في صمت خانق، حفروا القبر ووضعوا فيه النعش الخشبي، قام أحدهم بفتح النعش الذي كان فارغا، ثم أمروني بالدخول إليه، هل جننتم؟ لن أفعل أبدا.. حاولوا إجباري عن النزول لكني قاومت بشدة، ركلت أغلبهم في وجوههم الذي لم تكن ملامحها واضعة.

فوجئت بعد ذلك بقشعريرة تجلد ظهري كسوط بارد حتى قفزت مذعورا فإذا بي مازلت ممددا على السرير و أمي و أخي الصغير

يجلسان بقربي، انصرفت أمي بعد أن غمغمت بعض الكلمات بلغتها الثانية و التي لم أفهم منها شيئا كالعادة، أدارت وجهها قبل أن تقع عيني في عينيها. تكلم أخي الصغير منزعجا: لقد كنت تحرك يديك و رجليك بعنف ظاهر، لقد أخفتنا كثيرا ولم نستطع إيقاظك إلا بهذا الماء البارد. هل كنت تحلم؟

و كأنني لم أصدق أنني كنت أحلم، رحت أتحسس جدار الغرفة بيد مضطربة، وقفت جامدا للحظات كتمثال مجيلا النظر في أرجائها، علني أهتدي إلى سر هذا الحلم المزعج، غير أنني لم ألحظ أي شيء يثير الانتباه، أشيائي مازالت في مكانها، كتابي مرمي على جنب السرير، علبة السجائر تحت الوسادة، تفقدت النوافذ فوجدتها مغلقة كما تركتها. لكن مازال ذلك الخوف يطاردني كلما تنقلت في أرجاء البيت لقضاء حوائجي، في المطبخ لارتشاف كأس من الماء، في الحمام لتنظيف أسناني من بقايا الماء الذي شربته، في الغرفة عندما أكون وحيدا مستعدا للنوم و يزداد حدة كلما أطفأت النور، مما اضطرني إلى إبقاء المصباح مشتعلا حتى اكتشف أبي الأمر ووبخني كثيرا.

في فترات نومي المتقطع، كنت أتساءل ماذا لو لم لكن أحلم؟ ماذا لو كان الأمر حقيقة؟ كيف سأقابل الله عز وجل؟ وأنا أجول بين

الطاعة و المعصية وأعلم أن من خطورة العيش بين الطاعة و المعصية أنك لا تدري في أي مرحلة منهم ستكون النهاية. ولو كان الأمر حقيقة لكنت الآن من الخاسرين. لطالما فكرت أن أغلب مشاكلي سببها بعدي عن الله..

استيقظت في وقت متأخر، تناولت فطوري من دون شهية، رأسي ثقيل، عيناي كليلتان، لحيتي مبعثرة و غير حليقة، لا أحب حلقها عموما، أطرافي مفككة و كأن شخصا ما كان يضربني بهراوة طوال الليل، فقد تعبت البارحة من كثرة المشي على الشاطئ و من السهر المضني و النوم المتقطع و أصداء ذلك الحلم تتردد في مسامعي.

اجتاحني إرهاق شديد أصابني بعجز و فشل شديدين و أفقدني كل رغبة في الحركة و التنقل، لدى قررت البقاء في البيت هذا اليوم فعموما لا مكان أقصده حتى إن خرجت. بقيت ممددا أتأمل حالتي التي لم تتغير.

أيام كغيرها من الأيام السابقة، تطلع الشمس و تغرب، و ما بين طلوعها وغروبها تمر الساعات إلى غير رجعة.. تستمر الحياة غير مبالية لما يحدث لي، و لا بمرض أو شيب أو فراق أو حتى موت.

في تلك الليلة أفقت على صراخ مزعج ممدود يشبه العواء، يتردد في جهة السقف ليتحول مع مرور الوقت إلى هرير خافت ، خفق قلبي

بشدة.. ماذا حدث؟ غادرت السرير مسرعا، تخبطت في ظلام الغرفة الدامس، تحسست الجدار، ضغطت على الزر، اشتعل الضوء، الساعة تشير إلى الثالثة صباحا، خرجت لأكتشف ما يحدث لأرتطم بأمي عند الباب الخارجي. أفزعتني هي كذلك لتزيد قلبي خفقانا.. إنهم الجيران مجددا، نطق أخي الصغير، نظرت من نافذة صغيرة لأتأكد.. إنهم الجيران الملعونون تبا! الأخوين يتشاجران على قطعة من حشيش و الأخت تصرخ و تتأوه بالقرب منهم دون جدوى.

عدت إلى الغرفة، تمددت على السرير.. تركت الضوء مشتعلا لأن النوم هرب من عيني، و انزاحت خواطري في دوائر من تساؤلات و افتراضات لا حدود لها و لا مفر منها على ما أظن.. قضيت ما تبقى من تلك الليلة موزع الخاطر، منجذبا بين أرجوحة النوم و اليقظة، تهاجمني أفكار ثقيلة، أمي التي ارتطمت بي في الباب و لم تقل شيئا، وكأنني شبح.. أبي الذي أفاق منزعجا وبدأ بالنواح ما أن رأى الضوء مشتعلا.. والواقع المر الذي يدخل متسللا من النافذة بشكله الغريب، يقترب مني و يستل مطرقة تحت إبطه الكريه ثم يهوى بها علي.

كلما تذكرت أهلي إلا و شعرت و كأنني جندي قابع في خندق

صغير و ضيق، جندي أصبح محاصرا من جميع الجهات و لا يملك فيه غير بندقية و بضع رصاصات و من حوله تكدست أوصال اللامبالاة والخيانة العلنية.. حيث التسامح أصبح عملة صعبة ونادرة في زمن الغدر و الخديعة و الاستفزاز المكشوف.. ها هم يتحدوني شامتين، يضيقون علي الخناق ساخرين.. إنه قردنا من لحمنا و دمنا.. فلنشاهده يصارع الزمن وحيدا.. يضحكون على قردهم المسكين عله يخرج من خندقه رافعا راية الاستسلام، و يظهر منهزما مدلولا أمامهم..

دارت الدنيا بي، ضاع كل شيء، أمنياتي كلها راحت سدى، لم يعد يهمني شيء، الموت و الحياة سواء، شريط السنين يمر أمامي بكل تفاصيله في سرعة خاطفة، العقل يقتحمه الملل و يعبث بما فيه.. الأمل يتسلق الجدار، لكنه ينهار في النهاية.. الحلم الجميل غارق في الظل يحلم بالموت.. ذكرياتي ترفرف بأجنحة كسيرة.. القلب يجثم في الركن القاتم يجتر يأسه و أحزانه.

هنا اكتشفت أن ماضي قد غرق كله، حاضري انتحر، مستقبلي مات جنينا في رحم الحاضر. ما قيمة حياتي إذن دون ماض ولا حاضر ولا مستقبل؟ فليغرق هذا البحر هذه الحياة التعيسة و ليطهرها من أدرانها وتعاستها.

وأنا أتأمل البحر، ترامى إلي خليط من البكاء.. مد إلي شخص يده يطلب الولاعة ولم أعره أي اهتمام.. كان الهم قد أخذ يجرفني.. أحسست بينابيع الغم تتفجر في ذاتي.. و بالحزن يرتفع.. بلعت آخر جرعة ألقتها الهموم في فمي.. ميز فيها لساني نكهة الاستسلام ممزوجة بسوء الحظ.. و أنا أهم بالعودة جارا أذيال الخيبة كعادتي، راودتني خاطرة، فابتسمت، ارتسمت على شفتاي ابتسامة يغمرها الاستغراب، و كأنني أودع هذا العالم الغارق في الظلمة، و كأنني أرمي بنفسي في عالم قد لا أخرج من قط، عالم الخيبة و الانهزام.

لكن كيف سأصنع مصيري وأمامي تستلقي طريق ملتوية كالأفعى، تارة أتسلق ظهر الأمل الشامخ، و تارة أنبطح على صدر الخيبات المسطح، و من ناحية أخرى تحكمني الأقدار بيدها المفتولة، ساعدها في السماء، و مصدرها تستره المجاهيل، وأنا.. أنا.. لا أملك سوى أن أجاري التيار المدفوع، و أن ألقي بنفسي على أرض مليئة بالمفاجآت.. مع أناس أقوامها كأقوامي، و لسانها كلساني، و سماؤها كسمائي أسير فيها كالأبكم، حديثي إشارة، و حركتي مقيدة، يقيني من غدرهم حظ ضيق و قليل، ما إن يدفئني أمنهم لحظة حتى يختفي لحظات أخرى وراء وجوه متجهمة، تنفجر في

وجهي من حين لآخر، وأنا.. أنا.. أسير وحيدا عاريا في سمائي الصافية و شمسي الدافئة.. لتهزني مجددا موجات البرد القارصة و تقتلعني يد الريح العاتية.. و الأمطار تغسلني من الخارج، و في الداخل معركة ضارية بين رغباتي و واقعي، و تشترك حواسي كلها في عملية معقدة من المقارنة بين ماضي و حاضري و حتى مستقبلي، و أنا.. أنا.. أحاول أن أحل تلك العملية المعقدة و أسكت تلك الحرب، لكنها تستمر رغما عني، فأمضي في الشارع الطويل محاولا أن أبدد وحدتي في بلاد لا تعرف الوحدة. أسير قرب الفيلات الفخمة، ويتراءى إلى مسامعي نباح كلابهم و أصداء موسيقاهم الهستيرية، لتزيد من تشنج أعصابي، أرفع رأسي نحو نوافذهم لأرى أناس تفصلني عنهم آلاف السنين، يرقصون بشكل غريب، و أنا.. أنا.. أنا الغريب في مدينتي، لا أملك إلا أن أمر أمام كل ذلك مرور الكرام، يداي في جيبي و ياقة معطفي مرفوعة لتقي عنقي النحيل من البرد اللاسع، و رأسي الصغير يغطيه شعر كثيف كقطعة ثوب أسود غير مرغوب فيها، يتدلى بين كتفاي، و في داخلي جو مشحون من الرغبة في أن تتغير حالي.

و ما يزيد أمري غرابة، حين تمر أمامي بنت حواء، وتغرز فيا عينيها البريئتين، و في جسدها النضر تظهر براعم أنوثة مغرية، تتباطأ في

مشيتها أمامي، تتظاهر بالتفرج على المعروضات في الواجهات الزجاجية، و تتفقدني من حين لآخر بطرف خفي، تستبطئني مجددا، لترتمي عيناي البائستين في جسدها، تتشبثان بساقيها المكتنزتين، تجري في عروقي دماء ساخنة، لتوقظ في داخلي شهورا من الكبت و الحرمان حتى ارتجف عودي، لأقف حائرا متسائلا، ترى ماذا أعجبها في متشرد مثلي؟ لكن ما إن أطلت الوقوف حتى تبعت شخصا آخر.. يا لسذاجتي إنها مجرد بنت هوى تبحث هي الأخرى عن سعادة مؤقتة تثير بها غيض تعاستها. أسحب عيناي المنهزمتين من ساحة المعركة و أمضي في طريقي بعودي المشدود و هل أملك أن أفعل أكثر من هذا؟ ثم لفت انتباهي رجل بحركاته الغريبة، نظرت إليه فإذا به يبتسم في وجهي.. أيعرفني يا ترى؟ لكنني لم أره من قبل، ليفاجئني عندما دعاني ل..... حركته المقززة أثارت اشمئزازي، هذا ما كان ينقصني.. رميته بقنينة كانت مرمية ليفر هاربا، االخ كم أكره هذا النوع من البشر.

توجهت إلى إحدى المقاهي لأقضي حاجتي، وقفت أمام المغسلة، مددت يدي إلى الصنبور أسكبه، كانت عيناي قد تعبتا، رفعتهما إلى المرايا المثبتة أمامي و على جانبي.. رأيتني في إحداها صورة منسية بالأبيض و الأسود، ورأيتني في الأخرى مجنونا أحمل على

كتفي كيسا خشنا.. لابد أنها علامات الحمق.. يجب أن أذهب للبيت قبل أن يكشف أمري.

قررت البقاء في البيت بالرغم من أني لا أطيق البقاء هنا ولو لثانية لكن هذا أهون علي من أن يكشف الناس أمري، أخاف أن أخرج و أعقد يداي وراء ظهري، أتخبط في مشيتي كالعادة و أنسج برجلاي على أديم الأرض خطوطا متكسرة، و أخرى مستقيمة، أخط نقطا و علامات استفهام و تعجب، مأساتي أكبر من أن تنسى و فضيحتي أوسع من أن تستر، وقد أدخل التاريخ المجاني و أصبح موضع الأنظار، في كل زقاق أمر به أسمع وراء الأبواب و النوافذ، بل حتى على الأرصفة وفي عرض الطريق، النساء الأطفال والرجال يتهامسون: إنه هو..

في السرير و أنا أترجى جفناي أن يغمضا قليلا وتنال عيناي المتعبتان قسطا من الراحة.. تذكرت الأشخاص الذين أقابلهم كل يوم في الحافلة، في الشارع، في المقاهي، ما أشقاهم و هم يفتحون أعينهم عن آخرها.. يتربصون أبسط الفرص في الظلمة الحالكة و الغامضة.. ما أشقاهم و هم يبللون شفاههم بما تبقى من لعاب في أفواههم من أجل اللقمة الملعونة.. ما أشقاهم وهم في بيوتهم صامتون و أصداء ضحكات جيرانهم تتردد في آذانهم المتعبة.. ما

أشقاهم و ما أشقاني.

حقيقة مأساتنا تكمن في أننا لسنا في مستوى هذه المأساة، نحن بسطاء، حياتنا بسيطة، ذنوبنا بسيطة، كتب لنا أن نعيش بسطاء لكننا تأثرنا بحقارة هذا العالم و أصبحنا نأمل في أشياء أكبر منا.. مما جعلنا نصادق الحزن و نفترش الهموم كل يوم.. مشكلتنا ليست مع الخبز الذي نأكله ولا مع الماء الذي نشربه ولا مع الأحلام التي نضعها نصب أعيننا.. مشكلتنا أننا ولدنا في زمن كريه، زمن بخيل.. تمضي الشهور و الأعوام بهدوء و مازلنا نتساءل من منا الغريب! نحن أم هذا الجيل الذي ما نزال في زمانه؟

بمرارة تعاقبت الأيام و الشهور وقلبي لتعاستي بدأ يلين، أصبحت كالعاشق الذي طال انتظاره لحبيبته حتى ألف الانتظار و لم يعد يرغب في عودتها.. أصبحت أميل إلى تعاستي أكثر فأكثر إلى أن التقيت بإسماعيل صدفة و أخبرني بأنه وجد الحل لمعاناتنا أخيرا.. هذا الخبر كان كصفعات تنهال علي ولست أدري مصدرها فقد فقدت الأمل في الأخبار السارة منذ زمن بعيد.

ـ هل أنت منتبه؟

ـ نعم

ـ جيد لأني لن أتوقف و لن أكرر ما سأقول و لا تقاطعني أرجوك

_ لن أفعل، أنت المدير

_ نعم أنا المدير لأني اكتشفت أمورا أنت لا تعلمها

_ تفضل

_ منذ أيام كنت في المسجد لأصلي صلاة العشاء حين...

_ منذ متى وأنت تصلي؟

_ ألم أقل لك ألا تقاطعني؟

_ آسف آسف

_ المهم بعد الصلاة لاحظت أن شخصا كان يراقبني.. نظر إلي طويلا حتى كدت أخفض بصري.. أخذ يتلمس لحيته ببطء شديد حتى انقلب بصره إلى ما يشبه التيهان.. فجأة لمحت الدموع تنهمر من عينيه حتى غمرت لحيتة.. لوهلة يا صديقي ظننته أبي.. أبي الذي تركني وأنا صغير، آه كم وددت لو أعانقه و أقول له هل جئت يا أبي لتداوي جراح السنين التي عشتها وحيدا، وتعوضني عن أحزان عمر مر بدونك.. أنظر يا أبي، أنظر إلى شعيرات رأسي التي تصارعن بياض الشيوخ وسحر الشباب.. أنظر.. لكن أنت تعرفني لن أفعل هذا أبدا..

_ نعم أعلم تماما هذا ففي نهاية المطاف يجب أن يدفع ثمن أخطائه..

_ في الحقيقة قد أفعل..

_ عموما أكمل حديثك..

_ انصرف الرجل لحال سبيله دون أن أدري سبب مراقبته لي و هذا ما حيرني طوال الليل وانتظرت صلاة الفجر على أحر من الجمر..

_ صلاة الفجر! أصبحت تستيقظ لصلاة الفجر.. هذا مفاجئ حقا

_ إن قاطعتني مرة أخرى سأنصرف..

_ آسف.. لكنك قد فاجأتني حقا..

_ قصدت المسجد باكرا علني أجده هناك لكن للأسف لم يأتي و هذا ما زاد من حيرتي. أصبحت أنتظره في كل صلاة إلى أن مر أسبوع كامل و ظهر أخيرا، لم أنتظر كثيرا حتى لا ينصرف مجددا.. بعد الصلاة قصدته لأستفسر أمره، لكنه تجنبني في الأول إلا أن إصراري جعله يتكلم أخيرا..

_ هل هو أبوك حقا؟

_ لا لقد كنت مخطأ.. لكن لا شك أنه أب جيد.. و بعد يومين من لقائنا الأول، التقيت صاحبي الجديد خاطبا في جماعة من الشباب قرب المسجد، لم يتأخر في رؤيتي سريعا، إستسمح الجماعة و قصدني تحت أنظارهم، سلم علي بكلتا يديه، ونحن نتمشى أخذ

يحدثني عما يحدث في الدول العربية هذه الأيام و كيف أن الدولة الإسلامية (داعش) ظهرت في الوقت المناسب لتنقد العالم العربي من الضياع وأن الحل المناسب لتفادي ما يحدث لنا من انحلال أخلاقي و بعد عن الدين هو في يد هذه الدولة الجديدة..

_ أتعلم أن مصاحبتك لمثل هذا النوع من الناس خطير؟

_ نعم هذا ما فكرت فيه من البداية لكن كلامه كله كان صحيحا، وهذا ما حيرني كثيرا..

_ يا صديقي لا مجال للحيرة في مثل هذه الأمور، قد يضيع مستقبلك في رمشة عين.

_ عن أي مستقبل تتحدث؟

_ هذا بالضبط ما يحيرني أنا كذلك..

_ دعني أكمل حديثي، لكن أريد منك تعهدا بأن تستمع جيدا ولا تحكم علي حتى أنهي حديثي، و إن كنت لن تفعل هذا فأرجوك لا تضيع وقتي، لكن إن وافقت على كلامي فتذكر أنك من اخترت ذلك وأني لم أرغمك على شيء لأن ما سيحدث بعد هذا ليس مسؤوليتي ..

انقضى يوم من أيام التفكير الطويل، أذناي لا تزالان تحتفظان بصخب كلام صديقي، بدا واثقا مما كان يقول بالرغم من أنني فهمت قصده منذ البداية، أصبحت أتحاشى النظر في وجوه أصحاب اللحايا و الجلابيب في المسجد لدرجة أنني قررت أداء الصلوات في المنزل بعيدا عنهم، فهم يبدون لي كالثعالب، يخرجون من المساجد بعد أداء الصلاة، يدمدمون بأصوات مرتفعة، يتمايلون في مشيتهم، تحيطهم هالة من الهيبة و الوقار، بالرغم من أن بعضهم ينسل إلى بيوت الدعارة يشرب و يزني.. لست مغفلا ليضحك علي جاهل أمي و يقنعني بأفكاره الغريبة، و حتى إن لم يقنعني فقد يستغل ظروفي هذه التي تجعلني أستسلم لأي شيء بسهولة.

عدت إلى تعاستي بعد أن فشل صديقي في إقناعي بمخططه الجريء بالرغم من محاولاته المتكررة مما جعلني أتهرب من ملاقاته كثيرا.. لا زلت أتذكر ابتسامته العريضة و هو يحدثني عن مزايا

—داعش- بحيث أنهم يوفرون لك كل ما تحتاجه عمل بمقابل جيد، مسكن ملائم، حتى الزواج فهم يتكفلون به، خلاصة الأمر أنهم سيمنحون لك ما قد تعمل من أجله هنا في بلادك طوال حياتك دون أن تحققه، حتى أنه بدأ يستدل على كلامه بآيات قرآنية: "عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم" وحقيقة الأمر أنه كاد

يقنعني بالذهاب معه إلى هناك ليس لاقتناعي بأفكارهم أو بما يعملون من أجله هناك.. بل لأني سأجد نفسي مرة أخرى وحيدا في هذه الشوارع..

مر نصف سنة كاملة و كأنه يومان فقط.. و ها هنا مازلت نفس الشخص التعيس.. ما زلت أسرح في الشوارع.. أشم الهواء الملوث.. أحس بالجوع غالبا.. أتذكر إسماعيل، البارحة رأيته، التقت عينانا، فلوى عنقه عني و انصرف، نصف سنة حصل فيها ما حصل.. هل مازال يتذكرني؟ نظراته كانت تدل على أنه لازال يذكرني.. كان يحادث بعض الأصدقاء يبدو عليهم أنهم أغنياء.. رآني وتجاهلني. يبدو أن الحظ حالفه أخيرا.. كان مهندما.. لاحظت أنه غير أصحابه.. لا أعتقد أنه التحق بداعش.. عموما لا أعتقد أنه يملك الجرأة الكافية لفعل ذلك.. ليس مهما الآن، المهم أن الحظ حالفه أخيرا.. تبعته بدافع الفضول بعد أن ودع أصحابه، كان يمشي بخطى سريعة ولو التفت قليلا إلى الوراء لرآني، و لا ربما نهرني. انتقل فجأة إلى الجانب الأيمن، مما جعلني أتوقف عن اللحاق به و مراقبته من بعيد.. وضع يده في جيب معطفه، إنه يملك معطفا الآن.. أخرج رزمة من المفاتح بعد أن وقف أمام سيارة فخمة و أخذ يفتح بابها.

انطلق إسماعيل مسرعا بسيارته الفخمة، و بقيت ساهما يكويني الفضول: من أين له كل هذا؟ أفقت من سهوي على صوت متسول يطلب مالا، يا للسخرية! نهرته بشدة: يوما ما سأقتل أحدكم أيها المتسولون المزعجون!

لست أدري حقا ما الجدوى مما يفعل هؤلاء المتسولون..

يستيقظون باكرا قبل الجميع هذا إن ناموا طبعا.. يجرون ثيابهم الرثة طوال اليوم في الشوارع.. وأطفالهم نائمون بين أيديهم طوال الوقت و كأنهم يخدرونهم عن قصد.. و وجوههم مصفرة من الجوع بالرغم من أن جيوبهم امتلأت بدراهم الفقراء مثلهم.. لكنهم يريدون المزيد و المزيد و في الأخير تسمع أن المتسول فلان قد مات و ترك أموالا كثيرة و لا أحد يرثها!

لقد فقدت صديقا جيدا.. أعترف بذلك.. لكن مهما بلغ حجم خسارتنا يكفي أن ننظر حولنا لنرى أن لا أحد يبالي لخسارتنا، لفجيعتنا.. فالشوارع تبقى مليئة بأناسها التي تبدو كالسيول، يشترون و يبيعون، يركبون السيارات و بعضهم يزحف مثلي على الأرض.. وصدى الموسيقى السعيدة ما زال يصل إلى مسامعنا أينما ارتحلنا..

أصبحت المدينة غير المدينة التي أعرفها.. تحولت أضواء الرباط

البيضاء إلى لون فاتح أصفر.. أصبحت كبحر فقد زرقته بكثرة الأوساخ.. أسير فيها طولا وعرضا بملابسي التي تنبهت أنها رثة قديمة.. كنت كشبح يتحاشاه الناس. لم يلتفت إلى وجودي أحد، الكل راض وغارق فيما فيه.. كنت كحافي القدمين أستلذ رطوبة البسط تحت قدمي فلا أمل السير، كأنني في حلم لا يصدق، أنا الوحيد الذي يتنقل في المدينة، واجهات المحلات مزينة و الناس مقعدون جوانب الشارع الكبير، يضحكون ويلبسون ملابس غريبة خصوصا النساء منهم.. هذا إن كنا سنسميها ملابس فهي بالأحرى تستر القليل من أجسادهن.. هذا جزء من الأشياء التي تثير غيضي في هذه المدينة المشتعلة.. الزيف فيها أفسد حتى مشاعر الحب.. لن أنكر أني أخاف أن أتزوج لدرجة أني وعدت نفسي ألا أفعل يوما.. بنات اليوم يعشن حالة من الجنون، يتعاطين المخدرات، يشربن الخمر، يدخنن، والحب الشريف لم يعد موجودا.. أنا أعلم أنه ليس في هذه المدينة شخص واحد لا يحمل في رأسه شيئا من نتن الماضي ومع ذلك فهم يعيشون بمشاكلهم يحملونها أينما حلوا و ارتحلوا رغم ثقلها.. يوما ما ستنفجر الجماجم.. و سينتهي الناس من أكل بعضهم البعض.. وأنا؟ ماذا سيكون مصيري؟ أنا لست إلا واحدا من أهل هذه المدينة.. مجبر أن أكون

هكذا.

بالصدفة.. و ما أبشعها من صدفة. في إحدى جولاتي المعهودة في المدينة، كنت أسير والمطربة أصالة تطرب أذني من خلال السماعات.. وعند منعطف مفاجئ، وجدت نفسي وجها لوجه معها.. بقيت جامدا في مكاني.. كانت كما رأيتها آخر مرة منذ سنتين تقريبا.. تلبس ثوبا سماويا.. يفضح تفاصيل جسدها أكثر ما يستر منه.. عيوننا التقت نظراتهما بحرارة، ففضحت حسرتنا على سنوات أضعناها وكان بالإمكان أن نعيشها معا، قبلات عبرت عنها شفتانا دون أن تلتقيا، هذه اللحظة وحدها تركت لنظراتي حرية التعبير كيفما أرادت.. فتحت ذراعيها لتضمني، خفت أن أعانقها وكأن شيئا لم يحدث بيننا، خفت أن أعانقها بعد أن تركتها بدون سبب مقنع بالرغم من أنها كانت مختلفة عن كل الفتيات اللواتي قابلتهن، خفت أن أعانقها فابتعدت عنها، فلاحقتني.. بدأت أسرع الخطى، وفي كل مرة أجدها أمامي فأنحرف، لكنها تعترضني باسمة.. حينها علمت أنها لم تتخلى عن عنادها.. ارتميت في أحضانها، تمنيت لو بكيت في تلك اللحظة، تمنيت لو سالت دموع صافية نقية من عيناي الجافتين، تمنيت لو أبكي حتى أهتز في صدرها، فأحس كأنني أتخفف من ثقل همومي التي كانت تملأني من

الداخل.

بدأنا نمشي لازمين الصمت حتى وصلنا إلى البحر.. قالت:

ـ وزنك نقص ..

ـ إنها السجائر التي تلتهم هوائي.. أنت كما أنت، وكما اختزنتك في ذاكرتي، رائعة جميلة..

ـ بعدك أتعبني، أفقدني توازني وهدوئي..

ـ أنا كذلك فقدت هدوئي، ما حدث كان فضيعا ولم يكن أمامي سوى الرحيل..

ـ لم تكن لترحل بتلك الطريقة..

ـ .....

ـ يجب أن تنسى ما حدث يا زياد..

ـ وهل نسيتي أنت يا هدى؟

ـ لم أنسى لكني أحببتك ومازلت أحبك، ومنذ آخر لقاء بيننا وصورتك لم تفارق خيالي.. تمنيت لو أملك تلك العصا السحرية، لأغير بها واقع الأشياء ونعود كما كنا في السابق.. أتذكر؟

ـ طبعا أتذكر كل التفاصيل.

بدأت معها مشوار الكلمات، وحدثتني عنها وعن معاناتها رفقة رجل لم تعد تطيقه، وعن كثير من الأمور التي حدثت معها.. بقيت

أنا صامتا معظم الوقت، عيناي لازمتا تأملها، شعرت بنفسها وقد أصيبت بشراهة الحديث فقالت:

_ لقد نسيت نفسي فكلمتك عني كثيراً وأنت تلازم الصمت والتأمل، فهل أصبتك بالملل والدوار؟

_ لا أبدا.. بل دوختني كلماتك التي تتحدثين بها بلغة الأطفال وعفويتهم، أحب أن أسمعك، أن تلقي ما في جعبتك لأنني وأنا أتأملك أرى تلك الطفلة التي كنت أعرفها تخرج من أعماقك، لا أشعر أن هناك حدوداً يمكنها أن تقيد أفكارك ولا كلماتك التي تخرج بعفوية وتلقائية، بدون مساحيق تجميل تختفي وراءها، وبدون أكاذيب تتحايلين بها على الواقع، ببراءة الأطفال تحولين الحقيقة إلى واقع جميل يمتزج بالعاطفة وبأمور أخرى جميلة، أنت متمردة بشكل لطيف، وعاشقة تغيرين مرارة الدنيا وتجعلين لها شكلاً آخر، أحب أن أراك وأنت ترفعين بعضاً من خصلات شعرك الذي غطى حاجبيك.. أتعلمين ؟ إنه لمن الغريب أن نلتقي في هذا اليوم بالضبط. ألا ترين ذلك؟

_ ليس الأمر غريبا.. لطالما انتظرت هذا اليوم و كنت متيقنة أنني سأراك يوما ما.

_ هذا آخر يوم لي بالرباط..

ـ إلى أين تنوي الرحيل ولماذا؟

ـ وجدت عملا مناسبا جنوب البلاد لدى لابد لي أن أغادر..

ـ يا للخسارة.. لكن لا تتصور مدى سعادتي بلقائك.. كم كنت أستعيد صورتك وأنت جالس أمامي في غرفتنا السرية أتذكر؟ كان العرق يسيل منا بشكل جميل.. كنت أتفحص وجهك عن قرب فأراك تبدو هادئ القسمات، وكنت تبتسم كثيرا.. كانت رائحة الخمر تتضوع من فمك كالعطر، لا تظن أني أكذب عليك.. تمنيت لو عشنا معا..

الآن أجد نفسي وحيدا مرة أخرى بعد أن ودعتها.. كان لابد أن أكذب عليها بشأن مغادرتي للمدينة، إنها متزوجة الآن ولن أسمح لها أن تخون زوجها معي لمجرد أنها لم تعد تطيقه.. كل الأزواج هكذا لا يطيقون بعضهم البعض لكنهم يستمرون..

تأتيني بعض الحالات كالتي أعيشها الآن و التي لا أعرف معها كيف أوجه شبكة تفكيري، ولا القبلة التي هي سبب تعاستي. كل شيء يبدو في الظاهر على أحسن ما يرام، لكن لا شيء في الداخل يوحي بذلك، يتقدم بي العمر وتستمر الأيام، وحالتي على حالها، كأنني أدور في حلقة فارغة، لا زواج لا أولاد، لا أمل في حصولهم.. مرحلة صعبة وأصعب حين يتقدم العمر و لا يطاوعك

الحظ.

اللامبالاة والتجاهل هما دائي وعلتي، القلق و قلة الحيلة هما السبب في تحطم نفسيتي، أدركت للتو أنني ودعت مرحلة ودخلت إلى أخرى، ودعت بالأولى نفسيتي و في الثانية سأودع حتما صحتي.. أين السبيل إليك أيتها السعادة التائهة؟ أم أنا التائه؟ لا أعرف لطريقك أي إشارة، أي سبب سوى الجري والتنقل و زمان الشباب يحترق.. غابت مع الأولى البسمة وستضيع الآن الصحة.. حتما ستضيع وأنا الآن جالس في البار للمرة الأولى في حياتي أداعب كأسا من الخمر، فما الذي بقي بعد هذا؟

ـ كأس أخرى من فضلك ..

ـ تفضل

تلفظني البار إلى الخارج، فأشم الهواء وأسرح في الشارع الكبير يتحاشاني الناس ربما لأن مشيتي أصبحت غريبة، دليل على أني مخمور، الآن أنا في حالة تسمح لي بالخروج عن المعتاد.. على مقربة مني سمعت وقع حذاء نسوي، فالتفتت.. كانت رشيقة مقدودة، تنبهت إلى عيوني التي تلاحقها فأسرعت الخطى، قلت لها بلغة ركيكة:

ـ واش كلشي زززززعر ولا غي الششششعر

أجابت بكل ثقة :

ــ واش كلشي طوووويل اولا غي اللسسسسان! ثم بصقت على الأرض واتجهت إلى الجانب الآخر..

لم أبالي، تقبلت بصقها بصدر رحب وجمدت في مكاني. أنظر حولي علني أهتدي إلى مكان أتخلص فيه من البول الذي يحرق مثانتي.. ولم أجد سوى سور طويل أصفر كانت تفوح منه رائحة البول أساسا، ظننته مرحاضا عموميا فقضيت فيه حاجتي أنا كذلك دون أن أكترث للمارة. وأنا أتبول بهذه الطريقة تذكرت يوم كنت أفعل نفس الشيء على جنبات المدرسة وأنا صغير مع ثلة من أصدقاء قدامى، كنا نجد في ذلك متعة لا تصور، نتسابق من منا سيرفع بوله أعلى من الآخرين، كانت الفرحة تغمر نفوسنا، وكان كل شيء على أحسن ما يرام في ذلك الوقت.. أعود اليوم بعد أن طال بي الزمن لأفعل نفس الشيء، أرفع بولي عاليا وأراقبه يرش الحائط ويتردد في ملابسي، أفعل هذا لا لشيء سوى لأخفي فيه ذاتي المرفوضة، وأركب ذاتا أخرى حتى أبدو بالمظهر الذي قد يلقى استحسان الأشباح التي أعرفها، أقصد أهلي و أصدقائي.. أبدو بمظهر السكير الآن، لم يكن ينقصني سوى الخمر، معطف بالي، شعر كثيف، لحية اعتدت أن أعفو عنها لشهور، اللحية هي أكثر

شيء يترجم التعاسة التي بداخلي وتزيد همي وأنا ألامسها بمسحة يدي. بدأت أشعر بالقليل من الدوار.. رائحة الخمر تنطلق عبر خياشيمي حادة نفاذة، فتسري في دمي الفقير.. الدخان يتوغل في رئتاي كالتيار، يدفعني إلى عالم آخر، إلى هناك... كم أنت ساحرة يا صاحبة الجلباب الأزرق، و أنت يا صاحبة السروال الأسود.. و لأول مرة أحس الشارع واقعا تحت بصري.

كنت غائبا مفتوح العينين وأنا ممدد في حديقة عمومية أبحلق في اللاشيء، بعد ذلك نمت في هدوء.. لم أنم بمثل هذا الهدوء منذ مدة، واصلت النهار بالليل ودخلت في حلم غريب.. كانت تناديني باسمي: زياد، زياد.. و تبتسم ابتسامة جميلة، آه كم اشتقت لابتسامتك يا أمي.. لم تكن حزينة ولا غاضبة، كانت سعيدة، لم تكن تشتكي وتتذمر.. كان وجهها بارزا، كانت تناديني فأحاول أن أشق طريقي إليها، لكن كان هناك جدار يفصلنا.. حاولت تجاوزه لكن رجلاي خانتني فتراجعت.. لكنها كانت تخطو بثبات مجتازة الجدار، لأجد نفسي محمولا بين يديها كطفل صغير.. عندها لم أعد أرى شيئا.. لا شيء سوى الفراغ.. لأستيقظ على صيحة مزعجة لقط ملعون..

ماذا تتمنى أن تكون في المستقبل؟ السؤال الذي حيرني و أنا

صغير.. كان المعلم يسألنا واحدا واحدا .. أغلبهم كان يريد أن يكون طبيبا.. إلا أنا لم أجب قط. سؤال يحضرني باستمرار فأعيده، لأعيد فيه قراءة ذاتي.. سؤال أستمتع وأتحسر بتوجيهه للأطفال الصغار، لأني وأنا كبير الآن لم أكتشف بعد ماذا أريد أن أكون ولا من أكون.. سؤال كنت أعرف جوابه لكني لم أجب عليه آنذاك مما أثار حفيظة المعلم ووصفني بالمتشائم. الآن بعد أن دارت الأيام و أبدت ما أخفته لصحافي صغير.. نعم أنا سعيد لكوني كنت ومازلت متشائما.. ودعت المدرسة و معلميها، ودعت أحلامي البسيطة لأجد نفسي سكيرا أحدث كأسي في البار.. ينتابني شعور بالألم وأنا غارق في الماضي الذي يجيب عنه الحاضر. أحسست بانقباض في داخلي، أفرغت رئتي بزفير تلاشى هواءه في السماء لأبدد فيه حزني.. أينك يا إسماعيل لتخرجني من هذا الغم الذي يقتلني.. اشتقت إلى الحديث معك.

أعود في المساء و الخمر ما زال يلعب بعقلي. أسجل بدخولي لحجرتي يوما آخر من السكر العلني وصباحا آخر دون شك..
ارتميت في السرير لينتج عن ذلك صوت مزعج كأنه يقول: انهض من فوقي أيها السكير واغسل جسدك النتن! لكني لم أبالي، أحب رائحتي النتنة.. أخذت أسيح بعيناي الحمراوتين في أرجاء الغرفة، كل شيء ماثل مكانه، ملابسي في الخزانة، غطائي في مكانه، المسكين لم يرى الشمس ولا الماء من زمن طويل حاله كحال تلك الملابس العفنة، لم أعد أستعملها عموما فقد اكتفيت بمعطفي، صديقي الوحيد ورفيق دربي. رقصات ذبابة كانت تمزق الصمت السائد في الغرفة.. لا أدري كيف وصلت إلى هنا! ربما رائحتي هي التي أثارتها.. تنتقل يمينا شمالا صعودا نزولا وكأنها تائهة لا تدري عما تبحث.. مثلي تماما، خاطبتها: أنت لاشك مخمورة مثلي؟ ماذا تريدين أن تكوني عندما تكبرين؟ لا تخافي لن أخبر أحدا..
ترجمت ضحكتها بدندنة وطارت بعيدا.
حشرت وجهي داخل الغطاء العفن علني أتصيد القليل من النوم لأخفي فيه ألمي و أنسى همي، لا أستطيع أن أغالب هذا الضرر النفسي بالخمر، النوم له مفعول خاص إنه الموت المؤقت.. تنتابني الحيرة و الوحشة، أفكر في أمي، إخوتي، ترى ما الجديد في حياتهم،

فأنا لم أسمع عنهم شيئا بالرغم من أننا نعيش في بيت واحد لكن في عالمين مختلفين.. ترى هل اكتشفوا قصتي الجديدة مع الخمر، لابد أنهم لاحظوا ذلك..

أصبحت أعيش بوثيرة يومية منظمة.. تشرق الشمس دون أن أراها و تستعد للغروب لتجدني في البار في نفس الكرسي، لا شك أنه قد سئم مؤخرتي، اللباس الذي على ظهري لم يعد يطيقني كذلك، أحسست به يلسعني كثيرا مؤخرا لكني لم أبالي، فأنا لست أنا! أنظر يا أبي وأنت كذلك يا أمي، أنظروا علكم تتعرفون على ذاك الذي يجلس في البار، عيب أن تتعرفوا عليه، أنظروا يا أهل المدينة، أنظروا يا من تعيشون من لحوم البشر وتسرقون أرزاقهم.. لم أعد مثاليا كما كنت، أصبحت واحدا منكم، واحدا من الذئاب، ذئب يحاول أن يتستر وراء ظهره النقي وسوء الحال، ذئب خلق للاشيء..

الحانة كانت مليئة بالزبائن الأوفياء ككل يوم، لم يسبق أن حدثني أحدهم منذ بدأت أرتاد المكان، لم أكن أشعر بوجودهم عموما، الكل مشغول بمداعبة كأسه، لكن اليوم لفت نظري أحدهم كان يجلس أمامي، عيناه تستقران على كأسه الفارغة، كان يكلم نفسه ويردد: الأرزاق بيد الله، الأرزاق بيد الله.. خاطبته بهدوء: اشرب يا صديقي و انسى العالم من حولك.. ولا تذكر اسم الله في مثل هذه

الأماكن.. أجاب بنفس الهدوء و الحسرة تبدو واضحة في عينيه: أعلم ذلك، لكنها الحقيقة.

سكتت، لم أشأ أن أستمر في الحديث معه، لكنه واصل تنهداته وهو مغمض العينين كأنه يتخيل فضيحته، ترى هل تكون فضيحته أكبر من فضيحتي؟ لم أرد إزعاجه بالسؤال فيكفيه ما هو فيه.. كانت أغاني جورج وسوف القادمة من اللامكان قد أخذت تتسرب إلى أذني بشكل خافت، تساءلت ما علاقة جورج هذا بحانات الخمر لما لا يذيعون أغاني لمطربين آخرين كأصالة مثلا، أود لو أسمع صوتها الدافئ الآن.. وأنا غارق فيما أنا فيه، تفاجأت بذاك التعيس يلمس يدي بيده الباردة، لولا بائع السجائر الذي لفت انتباهي لصفعته في وجهه، ظننته واحدا من هؤلاء المثليين الذين امتلأت بهم شوارع المدينة، لكنه كان هادئا وتكلم بحسرة شديدة حتى قارب البكاء، استفسرته: ما بك يا صديقي؟

اقترب مني، وقدم لي كأسا آخر، كنت بحاجة لكأس آخر، أشعلت سيجارة وسلمته واحدة كذلك، تبدو ملامحه واضحة الآن، رجل في الثلاثين من العمر، له شارب كشارب أبي تماما.. أشار إلي أن أقترب أكثر، انحنيت باتجاهه و همس في أذني: أريدك أن تسمع قصتي وتقتلني بعد ذلك! أجبته ساخرا: دعنا نسمع قصتك أولا ثم

نذهب لننتحر معا.. ابتسم وقال: أنا يا صديقي إنسان بسيط، لدي عائلة أعيلها، لكن كما تعلم لا يحالفنا الحظ دائما في الحصول على عمل قار، أنا عاطل منذ ستة أشهر، وقبل أسبوع سمعت أن صاحب الجلالة سيقوم بزيارة للمنطقة التي أعيش فيها قصد مهمة ما، قلت مع نفسي لما لا أجرب حظي كما جرب الكثيرون قبلي وأطلب العون منه، وهذا ما فعلت فعلا، أخبرت صديقي وتحمس للفكرة وقررنا أن نفعلها مهما كلف الأمر، عموما ليس لدينا ما نخسره.. في صبيحة الزيارة الميمونة. استيقظت باكرا مما أثار فضول زوجتي وراحت تسأل، لكن لحسن حظي أني لم أخبرها بوجهتي وإلا ساءت الأمور أكثر من هذا.. أخذت نسخة من بطاقتي الوطنية ووضعتها في ظرف أصفر وانصرفت مسرعا، التقيت بصديقي الذي كان بانتظاري في سيارة أبيه، توجهنا إلى المكان المقصود والصمت غالبنا وكأننا ذاهبون مهمة انتحارية، وصلنا كان المكان قد بدأ يمتلئ، وقفنا ندرس المكان قبل بدء العملية.. ما هي إلا ساعات قليلة بالرغم من أنها كانت دهرا علينا حتى انتهى الملك من زيارته وتوجه نحو سيارته، توغلنا وسط الجموع بسرعة دون أن نكترث لمن أمامنا، وصلت أنا لمكان مناسب لكن صديقي تأخر وسط الحشد الكبير لدى مرر لي ظرفه لأسلمه مكانه، وهنا هاجمتني الأفكار

السوداء، مر الملك بقربي وسلمته ظرفي فقط، كان الأمر سهلا جدا، لم أكن أظنه بتلك السهولة فالملك دائما ما يكون محاصرا بمراقبيه مما يصعب الوصول إليه، كنت جشعا لما سلمته ظرفي فقط دون صديقي، كان بإمكاني تسليمه الظرفين معا لكنني خفت ألا يعجب الأمر الملك و يعيد لي الظرفين معا وتضيع الفرصة من بين يدي! كانت سعادة كبيرة تغمرني لكنني حاولت إخفائها كي لا أجرح مشاعر صديقي، لكني تفاجأت بردة فعله بعدما أخبرته أنني لم أتمكن من تسليمه الظرفين معا، أجاب: لا عليك ودعاني للاحتفال بهذه المناسبة، في الحقيقة استغربت لأني لو كنت مكانه لوبخته وأنهيت صداقتنا في تلك اللحظة.. كان هادئا جدا وكأن شيئا لم يحدث بل العكس كان سعيدا من أجلي وأصر على دفع ثمن المشروبات.. كنت في سعادة لا مثيل لها، فكرت في ابنتي وزوجتي وأمي، تمنيت لو كان أبي حيا ليرى ما حققته اليوم، فكرت أن حياتي ستتغير ابتداء من اليوم.. وأنا ساهم في أفكاري فاجأني صديقي وهو يقول: الأرزاق بيد الله، أتعلم يا إبراهيم أن أمر الأرزاق غريب جدا، فهي ستأتيك حتى لو كانت في يد أعدائك، أجبته مستغربا ماذا تقصد؟ لم ينطق و قام بإخراج ظرفا أصفر في جيبه وسلمه لي وقال: آسف يا صديقي فظرفي أنا كان أبيضا! في تلك

اللحظة كنت وكأن صاعقة قد ضربتني، شل لساني وتوقفت كل أعضائي! يا للمصيبة، أحسست وكان أذنان كبيران قد بزغا في رأسي، حمار! سلمت ظرف صديقي وأرجعت ظرفي دون أن أنتبه. كنت في موقف حرج لما انتهى من سرد قصته، لم أدري إن كان علي أن أواسيه أم أضحك عليه.. حاولت منع الضحكة التي كادت تمزق أمعائي لكني لم أستطع، لأنفجر مقهقها في وجهه حتى سقطت من على الكرسي، لتشرئب أعناق الحاضرين نحونا.. كان يوما استثنائيا حقا، لم أضحك هكذا منذ كنت أنا و إسماعيل نجول الشوارع ونضحك على الناس وعلى أنفسنا إلى درجة البكاء، كانت تلك هي رياضتنا المفضلة. لكن يبدوا أننا ضحكنا كثيرا وحان وقت البكاء.

أحسست بانقباض شديد في صدري، هذه المرة أسرفت في الشرب، دخت بطريقة لم يسبق أن دخت بها من قبل، دخلت عالما آخر لم أكن أحلم به يوما، أما عالمي الواقعي فقد ودعته منذ أربعة أشهر، منذ صاحبت الخمر.. لا أدري إن كنت قد أخرجت الواقع من رأسي أم أني أخرجت رأسي من الواقع! الحقيقة أنني تغيرت للأسوأ في الأشهر الأربعة الأخيرة، تولد في مزاجي أشياء غريبة ترميني إلى مراتع الشيخوخة فاسلك بعض سلوكياتها، أتعصب بسرعة، أعود

ولا أستقر على حال، أقلق لأدنى شيء، أغضب لأتفه الأشياء.. لاحظت ذلك وأنا في إحدى مراحيض البار، كنت غاضبا جدا ولا أدري ما السبب، رحت أصرخ في وجهي قبالة المرآة، كنت أسب وأشتم، تبا لهذه المدينة ومن فيها، تبا للمتسولين الذين ينحنون من أجل بعض الدراهم، سئمت وجوهكم المخيفة، احصلوا على وظيفة ملعونة.. تبا لهؤلاء السود الأفارقة، اللذين يملئون جميع الأماكن، العرق العفن يخرج من مساماتهم، نتنين طوال اليوم، اغسلوا أجسادكم المقززة.. تبا للمثليين، بصدورهم العارية ورؤوسهم المنتفخة، يتسكعون في المنتزهات والأرصفة، مفتخرين بأنوثتهم الغريبة.. تبا لأولئك الفرنسيين، يجلسون طوال اليوم في المقاهي يشربون الشاي بالنعناع في كؤوس كبيرة، السجائر بين أسنانهم، يبتسمون ويضحكون ويتسكعون وكأن البلاد ملكهم، ارجعوا إلى بلادكم العنصرية.. تبا لأولئك الأغنياء، يدعون بأنهم سادة الكون، مجرد ثلة من الخونة، يعدون طرقهم المتعددة لسرقة أرزاق الفقراء، أتعتقدون أننا لا نعلم كيف تعيشون! أرسلوا هؤلاء المجرمين إلى السجن مدى الحياة.. تبا لمشجعي كرة القدم، و أي كرة في هذه البلاد! خمسون شخصا يتدافعون في سيارة واحدة، يرفعون إعلاما قبيحة و يهتفون بأصواتهم الحيوانية.. تبا للشرطة الفاسدين مع

ابتسامتهم الغريبة، وثقتهم الزائدة ومسدساتهم الفارغة.. تبا لرجال الدين الذين يضعون أيديهم تحت سراويل الأطفال الأبرياء.. تبا للكاسيات العاريات اللواتي يشتكين من التحرش الجنسي.. تبا للوحش الذي يتحرش عليهن.. تبا لأبي مع حزنه اللانهائي.. تبا لهذه المدينة ومن فيها! من أصحاب المشاريع الكبرى في الشوارع الراقية إلى بائعي السجائر في الأحياء العشوائية.. إلهي اترك الأرض تهتز، دع النيران تثور، اترك الجميع يحترق للرماد، وبعد ذلك أنزل المطر وغطس هذا المكان بالأكمل ..

لا لا.. تبا لك يا زياد، كانت الفرصة في يدك وأنت رميتها أيها الأخرق الغبي.. ادفع ثمن أخطائك الآن.

لم أتمكن من السيطرة على غول الضجر الذي أمسك بي طوال هذه المدة الملعونة، بدأت أسأم تلك الوجوه البائسة في الحانة..

ارتشفت كأسا بسرعة وخرجت للشارع، جلست منزويا في أحد الأركان أتأمل السيارات التي تمر أمامي، حتى هذه اللحظة لا أدري لماذا بعثت برسالة نصية إلى إسماعيل في هذا الوقت الكئيب أسأله عن أحواله، من سألني أنا عن أحوالي! ربما لأننا تعودنا على تبادل الرسائل فيما مضى أو ربما تدخل اللاوعي في الأمر، ليتني ما فعلت..

أربعة أشهر ملعونة مرت علي في هذه الحانة الملعونة، أخرج منها مترنحا أصطدم بالمارة غير مبال بما يقولون، أغالب الخمر، أحاول إسكات الأصوات التي تدور في رأسي الثقيل، أعترف أن هذه الحانة كانت تريحني من أشياء كنت أدفنها فيها، أما الآن وأنا في الشارع فلا أعرف أين أذهب سوى إلى غرفتي العفنة التي ملت مني من كثرة المكوث فيها..

أربعة أشهر سوداء مرت على كالدهر، أختنق كل لحظة داخل حجرتي ذات الأربع جدران، يزيد فيها كرهي لنفسي كل دقيقة، وأبغض حظي وأشمئز من تصرفات أهلي حينا.. وألعن هذا الجيل الذي ولدت فيه أحيانا أخرى.. يصيبني الملل لكثرة الجلوس والنوم المتقطع، لا أعرف أين أذهب والى أين أصرف هذا الوقت الذي أسلخه من عمري.

أربعة أشهر كئيبة كرهت فيها النوم، لأنه يسلمني إلى أفكار وأحلام مخيفة، أراني فيها في كفن أسود محمول فوق أكتاف الغرباء، يرمونني في قبر وأنا مشلول الحركة، يغطونني بالتراب وأنا مازلت حيا يرزق، أصرخ حتى أختنق، فأنهض من نومي مذعورا أرتجف وأرتعش

أربعة أشهر مخيفة قررت فيها ألف مرة أن أهجر هذه البلاد بأي طريقة ممكنة إلى بلاد أخرى كيفما كانت، أتلذذ فيها بالغربة

الحقيقية هربا من عويل من حولي وأسئلتهم المزعجة وتنبؤاتهم المتشائمة، لكنني أتراجع في الأخير وأقنع نفسي بنصيبي وحظي العاثر في الحياة.

أربعة أشهر سيئة قتلت فيها ضميري، ورحت أسيرا لرغباتي المشئومة، اكتشفت حينها أن حياتي كلها ليست سوى ضلال في ضلال، تملئها خيبة أمل دائمة ومنتظمة فلا أنا حققت أحلامي، ولا أنا أقاتل من أجل أحلام جديدة، ولا أنا أفكر في ذالك! فلماذا أعيش إذن؟

أربعة أشهر حزينة..

في آخر يوم لي في تلك الحانة.. لم أطلب الخمر كعادتي بل طلبت الصودا، استغرب الساقي الذي كان يشبه هتلر كثيرا، لكنه رمقني بابتسامة جميلة تدل على أن طلبي كان صوابا هذه المرة.. ففي الليلة التي تسبق هذا اليوم و من دون سابق إنذار وجدت نفسي في الحمام أغسل جسدي النتن من قذارته.. بعد أن قصصت شعري الكثيف مع تزيين طفيف للحيتي.. كنت أرتشف الصودا و السيجارة تحترق بين أصابعي.. رحت أتأمل مظهري الجديد في المرأة الجانبية للحانة.. عيناني تلمعان وكأنهما تقولا: حان الوقت للبحث

عن طريق آخر قد ينقدني من تعاستي.. فحتى الآن لم أفلح في إيجاد الطريق الصحيح لتحقيق ذالك..

مر ذالك اليوم وكله نشاط وحيوية لدرجة أنني قد شاركت في إحدى المظاهرات.. يصادف أن الحانة الذي أرتادها كانت قريبة من مقر البرلمان، بالضبط قرب محطة الرباط الطرقية.. تيرمينوس كان هو اسمها.. إسم على مسمى.. ففيها ينهي الكثيرون يومهم الشاق.. تفاجأت و أنا أخرج منها بالعدد الهائل لرجال الأمن بمختلف أنواعهم.. بقيت أتأمل ذالك المنظر، لا أنكر أنني شعرت بخوف طفيف ممزوج سعادة غامضة، ظننت أن الثورة قد بدأت في المغرب! لكن اتضح أنها مجرد مظاهرة عادية نضمها بعض العاطلين، و بما أنني واحد منهم قررت المشاركة طالما الأمور ستمر بسلاسة على أمل أن تصل الرسالة للمس ؤولين بسلاسة كذلك.. عدت إلى البيت باكرا على غير العادة، قررت تنظيف حجرتي المسكينة، قمت بوضع الملابس في الآلة الأوتوماتيكية، واحدة من أروع الاختراعات التي صنعها البشر. ففي ساعة فقط ودون عناء حولت ملابسي الرثة إلى ملابس نظيفة.. وضعت غطائي المقزز تحت أشعة الشمس وتركته يستمتع بها وعدت لأرتب ما تبقى في الحجرة.. حل الليل سريعا وكأنه أحس بعيائي، لأستسلم لنوم عميق فاجئني وأنا اقرأ

روايتي التي بدأتها منذ أربعة أشهر ولم اقرأ فيها سوى صفحتين .. استقضت على صوت الهاتف.. كان المتصل يتكلم بلغة انجليزية متقنة.. أبلغني برسالة مفادها أنني اخترت من بين المرشحين للحصول على تأشيرة الدخول للولايات المتحدة الأمريكية! لم أصدق أو بالأحرى لم أستوعب ما حدث للتو، خرجت مسرعا أبحث عن مكان أستطيع فيه تفقد الانترنت والتأكد من صحة الخبر..

بعد الخبر السعيد هذا، تنبهت أنني كنت أعيش حياتي في هذه البلاد كما يعيش الكثيرون من هذا الجيل، رغم أنني متأكد أنني لست واحدا منهم، وأن ظروفنا تختلف.. اكتشفت أنني ممزق داخل نفسي وفي علاقاتي مع الآخرين.. وأن الآخرين كذالك ضائعون، شباب معظمه حائر و تائه بين الأمس وعلامات الاستفهام حول الغد، شباب يمارس لعبة التجاهل في محاولة دائمة للعيش دون أن يطل على أنينه المخضب بالحرمان، فيتمدد فوق الوقت، يتثاءب في لا مبالاة تبعث على الغثيان..

الآن وقد حصلت على فرصتي للرحيل بالرغم من أنني لست بخير إلا أنني على الأقل الآن أعرف ما هو أكثر من مشكلتي، بل أكاد أجزم أنني أعرف ماهية مشكلتي بالضبط.. أعلم أنني أعيش حالة

من الضياع الكامل.. لا أعرف من أنا ولا ماذا أريد ولا ماذا أفعل بهذه الحياة التعيسة.. لكن فكرة الرحيل نفسها نجحت في تهدئتي .. في البداية لم أخبر أهلي لأنني كنت متأكدا أنهم لن يساعدوني في دفع تكاليف الإجراءات اللازمة للسفر.. أعرف رد فعل أبي مسبقا: ليس هناك ما ستفعله في أمريكا! ألم تلاحظ أنني افعل الكثير هنا يا أبي؟ لكني لم أستطع إخفاء الخبر طويلا فأخبرت أخي أسامة الذي يكبرني سنا.. لا أدري ماذا فعل أو ماذا قال بعد ذالك، لكني تفاجأت بأمي تحدثني تستفسر وتبدد شكوكها بأسئلة كثيرة. أكدت لها صحة الخبر وفرحت هي كذالك، أعلم أنها لم تسعد لي أنا شخصيا بل لنفسها، فأخيرا سيكون لها ابن في أمريكا كذالك تتباهى به أمام عمتي التي لطالما أغضبتها وهي تتباهى بابنها الذي سبقني إلى هناك، أنور ابن عمي، حسب معرفتي به فهو شخص جيد، هو الآخر كان محظوظا بعد أن عان كثيرا ورحل إلى أمريكا، و على ما يبدوا فهو الآن مستقر هناك، وهو نقطة ايجابية تضاف إلى حظي الوفير، فقد أحتاجه في أيامي الأولى هناك، لكني أفسدت فرحتها لما أخبرتها أنني لن أستطيع الذهاب لأنني لا أملكك المال الكافي لدفع تكاليف الإجراءات اللازمة للرحيل لتسرع بعد ذالك لإقناع أبي لمساعدتي، كانت فكرة ذكية مني فانا لن أستطيع أبدا

طلب المساعدة منه، ليتني لم أسرف مالي كله في الخمر والعاهرات.. لما احتجت الآن مساعدة أحد ولما رحلت دون أن يعلم أحد، فحتى البارحة لم يحس أحد بوجودي بينهم..

كان من الرائع أن يقبل أبي مساعدتي لكني لم أستغرب فهذه فرصته ليتخلص من حمل ثقيل.. وهكذا أكون قد صالحت الجميع وأرحل في سلام بالرغم من أنني سأشتاق لأخي الصغير أيمن.. كان يخبرني دائما بأنني أخوه المفضل.. جملة كنت أسمعها ولم أكن أجيب لأخفي تأثري بوقعها علي، فالحقيقة أنني لم أفعل الكثير من أجله، سوى أنني رافقته مرة ليشاهد مبارة لفريقنا المفضل ريال مدريد في إحدى المقاهي وكان ذالك كافيا بالنسبة له ليحبني أكثر، أم ربما رعايتي الدائمة له وهو صغير كان لها تأثير في انجذابه إلي أكثر من الآخرين، لا أدري لكن عموما سأشتاق إليه كثيرا..

الغريب أن أحلامي البائسة لم تكن تتعدى زيارة تركيا، فما بالك بأمريكا! ففي الوقت الذي تحمس فيه آلاف الشباب و الشابات للقرعة أو اللوتري ونسجوا أحلاما وطموحات وراء تلك المساعدة أو بالأحرى المعونة التي تقدمها أمريكا على شكل فيزا لشباب بعض دول العالم الثالث.. وهم يعرفون حق المعرفة أن مثل هذه الأشياء البسيطة عندهم هي بمثابة طوق نجاة بالنسبة لنا شباب

التعاسة في بلداننا التعيسة.. و الملاذ الآمن لكل من خاب أمله في تحقيق حلمه في وطنه.. فبعد الفقر و البطالة والإهمال لم نعد نسمع في قنواتنا التلفزية سوى: قتل، فجر، انتحر... فلماذا لا نسعد بمثل هذه الفرص بالرغم من أن مصيرنا هناك يبقى مجهولا! لم أكن متحمسا للأمر لولا أنني كنت أعمل في مقهى للانترنت آنذاك ولاحظت الكم الهائل من الناس التي تتوافد علي لأسجلها في القرعة لما شاركت في الأمر من أوله.. والحقيقة أنني نسيت أمرها حتى تلقيت تلك المكالمة.

ارتديت ملابسي استعدادا للذهاب لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال الإجراءات اللازمة، كان الصف طويلا لكني كنت سعيدا، حان دوري وتقدمت بخطوات واثقة نحو باب المكتب، وقبل دخولي رن هاتفي مرة أخرى، لكن هذه المرة كان صوت المنبه الذي أيقظني من حلم جميل.

كان حلما جميلا في الحقيقة، لم أحلم بشيء مفرح كهذا منذ زمن، ربما العياء كان سببا في تدفق مثل هذه الأحلام إلى جمجمتي..
بقيت ممددا في الفراش طوال اليوم، سافرت إلى بقاع عدة في رأسي مدفوعا بوخز الحلم، ملأت أرجاء جمجمتي بشتى الأحداث، تفاصيلها ترهق تفكيري و تعبث بمشاعري، اقتضت العادة أن أرمي رأسي على الوسادة كل المساء، فيرفض النوم ملاقاتي متحديا عيائي و استرخائي غالبا ما أودع الفراش فأعانق سواد الليل في السطح، هائما مستنكرا لما حل بي، و يحدث أن أمشي أحيانا ليلا حداء الفيلات فتنهرني كلاب سكانها كالعادة، كأنها تحرسهم من النحس الذي يلحق بي، أتخيلهم موتى و الابتسامة مرسومة على وجوههم، ثم يبعثون صباحا ليحولوا تلك الابتسامة إلى ضحكة تصل إلى مسامعي و تغيضني أكثر فأكثر، يحدث أن يرتسم شعاع الشمس عند الأفق وأنا مازلت أصارع عدوا يقتات من فتات دماغي، يأتي التفكير على كل ما بداخلي من أحاسيس و رغبات و أفكار فاستسلم للنوم و أغيب عن الوجود فلا أفيق إلى شمس اقتربت من الرحيل.
أجلس هائما، أتأمل المارة و أتحسر على حلم أمريكا الذي لم يتجاوز وسادتي الرثة. كانت لتتغير حياتي حقا، كانت لتصبح

أفضل، كان الحلم لو كان حقيقة ليصالحني مع نفسي و مع أهلي و مع الله.. والله يعلم كم أرغب في التصالح معه.. فأنا متعلق به أكثر مم يتخيل الجميع، يظنون أنني منحل دينيا لمجرد أنني عاص، لكنني متأكد أن الله يسكنني و يحبني على الرغم من معصيتي له، كل الناس ترتكب الخطايا و لا أحد معصوم من المعصية، أنا متأكد أن طريقي سينتهي إلى الله في نهاية المطاف، لأنني لا أريد أن أنتهي في طريق غير طريقه، لكنني أخاف أن أموت قبل ذلك.

لم أنتبه إلى أين أجلس إلا حين تسلل برد قارص إلى ما تحت ثيابي. و بالضبط حين كنت أنظر إلى أشجار لا أعرف نوعها وسط حديقة الرباط قرب سينما رويال.. خرجت من الحديقة، قصدت قاعة السينما التي كانت تبعد بضع خطوات، وجدتها مغلقة، وأمامها حارس نحيل الجسم، قصير القامة، يتشاجر مع سكير يريد التبول على حائط القاعة، نظر إلي الحارس الذي كان يعرفني لكثرة مروري من ذالك الطريق، مشيرا إلي بأن أعينه على إبعاد السكير قليلا، لكني بقيت متسمرا في مكاني أنظر إلى ساقي السكير و هما ترتعدان، أعجبني المنظر و انتظرت حتى انتهيا من الصراخ، قدمت سيجارة للحارس المتعصب، جلست أمام القاعة قليلا في حين بقي هو فاغر الفاه ينظر تارة إلى السيارات المارة في الشارع و تارة إلى

معطفي الذي تمزق من الظهر حين هممت بالوقوف في ذالك الكرسي الملعون، أخذت التهم السيجارة و سرحت عن العالم لكني أفقت من حذر تخيلي على شرشرة بول قربي، السكير الملعون الذي كان يتشاجر مع الحارس يتبول على حائط القاعة، ضحكت وانصرفت أجرجر رجلاي في إسفلت الشارع، جلست على مقعد خشبي أخضر قبالة مقهى الفن السابع، أدخن وأتأمل دخان سيجارتي كما يفعل جميع المدخنين، محاولا أن أعطي لنشوتي هذه، صورة ذلك الدخان و هو يمتزج بفراغ لا نهائي بالفضاء، أعجبتني فكرة امتزاج دخان يخرج من أنفي و فمي بفراغ الفضاء، هكذا هناك على الأقل علاقة تربكني بهذا الفضاء الشاسع.. ملل شديد أصابني، نفسي تجرني للعودة للبار، وأنا أصارعها بكل ما أوتيت من قوة، أهمس لها، لا مزيد من الخمر أرجوك، و عموما لم أكن أملك سنتا واحدا في جيبي لدى استسلمت نفسي بسرعة وتركتني وشأني. السابعة مساءا، حان وقت العودة إلى غرفتي البائسة، حان الوقت لارتاح قليلا، لكن ككل مرة، ما إن أرمي جثتي في سريري الهرم، حتى تأتيني رغبة جامحة في التدخين، لأجر جسدي المتعب إلى السطح، أستلقي على ظهري و أمدد رجلاي، أقابل السماء ونجومها، أنفث الدخان و أراقبه يسبح في الفراغ، ذاك الدخان هو

رسالتي لتلك النجوم هناك: النجدة.. النجدة أيتها النجوم. لم أنتبه أن السيجارة قاربت أن تنقضي حتى أحرقتني من شفتاي، لم أبالي، بل رحت أفكر، ماذا لو كان لهذه السيجارة أحاسيسها الخاصة؟ ماذا لو لم ترغب أن تحترق بين أصابع متشرد مثلي.

نسيت أمر السيجارة وشردت بعيدا، هناك داخل أغوار ذاكرتي، هناك حيت خزانتي الملطخة بالدماء، تلك الخزانة الملعونة التي ظننت أني أحكمت إغلاقها و أضعت مفاتيحها، لكني فتحتها مجددا اليوم. فتحتها وكان الأمر بمثابة إطلاق سراح دموع مسجونة لسنين طويلة، الدموع التي لطالما حاولت الهروب من سجنها التعيس، اليوم تركتها تسيل وتسيل دون أي رد فعل لإيقافها، كانت عيناي الحمراوتين تعيدان المشهد بأدق تفاصيله.. صغيرتي هدى تتمدد عارية على سرير الفحص، وقد شحب وجهها من كثرة الخوف، كنت أراقبها من ثقب الباب.. باعدت بين ساقيها وغرزت أظافرها في جنبات السرير، حقنتها الطبيبة بمخدر ووضعت دلوا من البلاستيك على الأرض تحتها، باشرت العمل، أخذ وجهها وجسدها يتلويان ويرتعشان من الألم، صرخت تنادي بإسمي، ارتعبت وتراجعت للوراء، بقيت مذهولا من هول المنظر، لطمت وجهي عدة مرات، لماذا؟ أنا حيوان.. الطبيبة تصرخ في وجهها آمرة

إياها بالصمت وإلا أوقفت العملية.. فجأة تخرج الشمطاء التي لا تعرف الرحمة من تلك الغرفة السوداء و في يديها قطعة ثوب صغيرة ملطخة بالدماء، وضعتها بين يداي المرتعدتين، كانت تنظر إلي باحتقار، لم أستطع أن أتنفس حينها، لم أستطع البكاء كنت أشهق بشكل غريب. أحسست بأمعائي تتفاقم و كأنها تقاتل لتخرج من جسدي المتعب، لا أعرف ماذا أصابني وأنا أنظر إلى ذلك القماش الملطخ بالدماء وبداخله ينام مخلوق لم يكتمل بعد، طفلتي من لحمي ودمي.. كنت أنظر إليها و أنا أعلم يقينا أنني ملأت للتو أعماقي بأكوام من الحزن لن تتركني أعيش بسلام بعد الآن. كنت أصرخ، أنا آسف يا صغيرتي، أنا آسف... تذكرت هدى رحت أجري بخطى ثقيلة إلى الغرفة السوداء، خارت قواي وأنا أنظر إليها ممددة في السرير، منهكة القوى، عينان جاحظتان، وجه أصفر، لم أعرف ماذا أقول وماذا أفعل؟ كانت تنظر إلي بعينين متعبتين، وددت لو كنت مكانها..

لم أعرف كيف ستكون ردة فعلها بعد كل ما عانته بسببي، لكنها كانت هادئة ومخدرة، جلست بمحاذاتها، وضعت رأسي فوق صدرها وتركت دموعي تسيل في صمت رهيب، خيم الصمت لوهلة، دقيقة كانت كالدهر، أخذت تداعب لحيتي كعادتها، وقالت

بصوت متعب: أنا بخير.. نظرت إليها بسرعة لكنها أشاحت وجهها عني، لم أمانع.. كيف لها تنظر في عيون الوحش الذي تسبب لها في كل هذا العذاب، أنا آسف يا صغيرتي، أجابت بنفس النبرة: لست أكرهك يا عبيط، هذا لمصلحتنا نحن الاثنين.. فقط لا أريد أن أرى دموعك أيها البائس، مسحت عيناي بسرعة: عن أي دموع تتحدثين؟ أنا لا أبكي أنظري إلي؟ حاولت منع نفسي لكن سرعان ما استسلمت حين استدارت، فقدت السيطرة على أعضائي كاملة.. أصبت بشلل كلي.

أغلقت الخزانة الملعونة آملا ألا أضطر إلى فتحها مرة أخرى، أكره حين أكون ضعيفا هكذا و أكره أن أشفق على نفسي، أكره الدموع.. عدت إلى غرفتي ونمت.

العاشرة صباحا، حملت كتابي و اتجهت إلى البحر، افترشت جريدة وتوسدت معطفي ككل مرة أحاول فيها أن أنعم ببعض الهدوء الصافي، أغمضت عيناي وسرحت في خيالي، في عالمي الذي أفعل فيه ما أشاء، سرحت بعيدا هناك، إلى ما وراء البحر، أرانا جالسين في بحر غير هذا البحر، في بلد غير هذا البلد، عالمنا وبحرنا نحن الاثنين فقط، أنا و أوليا.. الملاك الأوكراني الرقيق، أداعب خصلات شعرها الذهبي، يدها تلامس يدي بسلاسة، شفتاها تهمسان في أذني برقة، تارة أسرق قبلة من عنقها الدافئ وتارة تفعل هي، ندخن معا، لا نفكر في شيء مطلقا، معها فقط أكون على سجيتي، أمارس ذنوبي وأخطائي ومعاصي كلها، لا وبل تحب عيوبي، لا تنتظر مني خلقا رفيعا ولا صلاحا، تتقبلني كما أنا. أهمس لها: أريحيني على صدرك يا صغيرتي، اتركيني أنام في عينيك فأنا متعب، دعيني أنسى اسمي وعنواني، أريد أن البقاء في أحضانك، أعيش بين عينيك و أموت في شفتيك.. تبتسم وتسكتني بقبلة حارة..

لكن ولأنني في شاطئ الرباط، لا يمكنني أن أبقى معها لوقت طويل، فسرعان ما أيقظني العشاق وبائعي السجائر والقهوة المعطرة و الورود بصراخهم المزعج.. تركت أوليا و أسدلت الستار عن لقاء

سيبقى حلما رهينا لمخيلتي مدى الحياة.
طلبت سيجارة وكأسا من القهوة المعطرة من أحد الباعة المزعجين، جلست القرفصاء أدخن، أرتشف القهوة وعيناي المشتاقتان لا تفارقان الأمواج.. أجلس وحيدا في عيد ميلادي الخامس والعشرين..

يسقط الجفنان عن خمسة وعشرين عاما ..
لا أريد لجرحي العفن التئاما ..
لا أريد سوى انتقاما ..
من جسد أضحى حطاما ..

الأفكار تتزاحم في رأسي وتتداخل إلى درجة تصيبني بشرود غريب، تجعلني ألهث ورائها دون جدوى، كنت بحاجة لأستريح من كل هذا الضجيج وهذه الفوضى التي أعيش فيها.
كان لابد أن أجد عملا كيفما كان، لم أعد أملك درهما واحدا، و لا مصدر لي، لهذا قبلت العمل في إحدى المكتبات، عملت هناك لمدة شهرين، وسرقت منها ما يقارب العشر روايات، بعدها تركت العمل دون سابق إنذار، اكتريت غرفة صغيرة في إحدى أزقة —

باب الحد- أعترف أن أجمل و أصعب أيام حياتي كانت في تلك الغرفة الصغيرة، غرفة لا تتكون سوى من سرير بال وطاولة من زجاج وخزانة صغيرة.. لكن كانت مريحة إلى حد كبير.

في الأيام الأولى لم أكن افعل شيئا سوى النوم طوال اليوم، أستيقظ لأستريح من النوم و أعود لأنام مجددا، قاطعت الطعام واكتفيت بالسجائر، أسمع معدتي تغرغر من الجوع و أبتسم، من شدة الجوع كادت المسكينة أن تتكلم، ولأن الصمت يخيم على الغرفة كان صوتها مسموعا بشكل مضحك و أحيانا أصاب بهستيريا من الضحك لمجرد سماع ذلك الصوت، و أحيانا أخرى أتضايق و أحقد على نفسي و تأتيني رغبة في تشويه وجهي و تقطيع لساني، ينتابني الحنق و أرغب في بثر أعضائي التناسلية، في ضرب رأسي مع الحائط، ولا يهدئني سوى السجائر.

اعتزلت العالم الخارجي، و دخلت هذه الغرفة غير مكترث، لكن بالرغم من ذلك مازالت تجري في ذاكرتي آلاف الوجوه و الأماكن، لكني أملك من القوة ما يكفي لأغلق باب ذاكرتي في وجههم.

عشرة أيام لم أفارق فيها سريري إلا لقضاء حاجتي، لا أدري ماذا يحدث في العالم الخارجي و لا أبالي، حتى هاتفي قد أغلقته ورميته جانبا. عشرة أيام هادئة بالرغم من أنني كنت أختنق داخل هذه

الجدران الأربعة، تارة أقوم وأصلي، أصلي بدون وضوء. عشرة أيام متعبة، اعتزلت فيها الطعام، فلم أعد أقربه إلا لإسكات تلك المعدة المجنونة ببعض المكسرات، عشرة أيام أفرغت فيها حجم الدموع التي تحملها عيني، كانت آخر دمعة نزلت حين سمعت آية قرآنية في البيت المجاور. عشرة أيام جميلة، قرأت فيها الروايات العشر التي سرقتها وبث أتعطش للمزيد، معظمها ذكرني بمعاناتي فأصير أسيرا لذكرياتي المشئومة، أحس وكأن الله يعاقبني على كل تلك المعضلات التي ارتكبتها طوال حياتي، لكني كنت قليل الحيلة فعلا. عشرة أيام استطعت فيها النوم ملئ الجفون، أخيرا رحمني النعاس و أصير شبه مخدر، لا تستفزني حركة الجيران ولا صراخهم، ولا حتى أشعة الشمس التي تطل علي أحيانا من النافذة الصغيرة، أنام وأنا مرتاح البال في تابوتي الجديد، ولا أشعر بأي رغبة لمغادرته، أحدق في سقف الغرفة و أنتظر معجزة من المجهول، حقا لا شيء مؤلم أكثر من محاولة التخلص من الألم.

كان لابد أن أخرج بعد كل هذه الأيام.. انتبهت إلى أن معونتي البسيطة انقضت، هذه المرة يجب أن أضيف أشياء أخرى كي لا أضطر للخروج مرة أخرى، ارتديت ملابسي وخرجت بعد أن غسلت وجهي. الحياة في الخارج كما تركتها منذ أيام.. الكل يصرخ

و يجري، لم أستغرب و لم أبالغ في توقع أن شيئا ما سيحدث بغيابي عن العالم، لم أضع ولم أتوقع ردود أفعال الآخرين إثر غيابي، لأنه بي أو بدوني لا شيء يطرأ على الكون، لا أتوقع أن يبكي أحد لكارثة حلت بي أو لفـراق عزيز علي، لا أتوقع شيئا إطلاقا فلو كانت الحياة تتوقف عل غياب أحدهم لفنيت منذ الأزل..

غبت أيام قليلة وعدت أتحسس ملامح الطريق، لا شيء تغير، الآخرون لا يزالون يذهبون إلى أعمالهم البائسة، لا زالوا يضحكون على النكات المثيرة للشفقة، يأكلون ويشربون، لا أحد سيحس بك حينما ينسحق إيمانك تحت ضغط الإحباطات المتوالية، أو حين تفقد صديقا عزيزا، أوجاعك تبقى لك ولن يحس بها أحد كما تحس بها أنت، سيكون عليك أن تؤمن أنه لا شيء يتغير في أبجدية الحياة لمجرد لعنة أصابتك ..

كانت السجائر في أول القائمة، اشتريت خمسة علب مختلفة، فأنا أدخن جميع الأنواع، لا أريد سوى الدخان.. أضفت إليها قطعة من حشيش التقيت صدفة بأحد الباعة، مررت قرب محل لبيع الخمور المعروف باليهودي و بدون شعور وجدت نفسي أدفع ثمن قنينتي فودكا..

اشتقت لرائحة القهوة و عدت للغرفة، وضعت المشتريات في الخزانة

وأحكمت إغلاقها.. تأنقت قليلا و قصدت مقهى كنت أرتاده فيما مضى، قدمت لي النادلة فنجان قهوة سوداء، نظرت إلى أرجاء المقهى، لقد تغير شكلها الآن، مفروشة ببساط أزرق فاتح وكراسي حمراء مغطاة بجلد أسود، الفتيات الجامحات في كل مكان، يروق لي المكان فعلا.

لم أكلم فتاة منذ شهور، اعتزلتهن جميعا فهن في مجملهن مكررات بشكل مثير للحنق، نمطيات إلى حد الملل.. أخذت أحتسي القهوة و أنا أراقب تلك التي تجلس أمامي وتراقبني بدورها، بدت جميلة من هنا، لكنها ما إن اقتربت حتى تلاشى جمالها، تبادلنا النظرات طويلا إلى أن دعوتها بعيناي لتجلس بجانبي، استغربت كيف تركت أصدقائها و أتت، لكن اتضح أنها عاهرة بالرغم من صغر سنها، تسعة عشر عاما و تمارس الدع ارة شيء مثير للشفقة حقا، أتساءل أين دور الوالدين هنا؟ هل يعلمان بأمرها فعلا؟ عموما هذا ليس من شأني ففكرة مرافقتها لغرفتي بدأت تلعب في عقلي، أتت صديقتها تطلب الولاعة، كنت أبحث عن ورقة ما في جيبي حين مدت لي يدها، استدرت و يا ليتني تجاهلتها وما استدرت، كانت أروع وأجمل فتاة رأيها يوما.. لن أقول فتاة فهي تملك جسد امرأة كاملة النضج، ممتلئة الأرداف، عيناها كحيلتان، صدرها مشدود،

خاصرة تسيل اللعاب، شعرها الأسود القصير مصفف بعناية فائقة، خديها ناعمتان تعتليهما حمرة خافتة، أنف صغير مرسوم بدقة، شفتان ممتلئتان بشكل لا يصدق، زينتا بأحمر شفاه خافت، تنتعل كعبا عاليا أحمر اللون، التقت يدانا وافترقتا بسرعة، لم تقل شيئا، قبلت صديقتها وعادت إلى مكانها، راقبتها وهي تعود، جسدها المقدود و المثير أثار الدماء التي تجري في عروقي وأخذت تجري بسرعة أكبر، استفسرت التي تجلس أمامي عنها وقالت أنها بكماء.. بكماء! كيف لفتاة بمثل هذا الجمال أن تكون بكماء! أضافت أنها تمارس الدعارة كذلك! استدرت أنظر إليها، كانت تنفث الدخان بشكل مثير، شعرت بالغيض لأن جسدا كهذا تفترسه الذئاب و الكلاب على اختلاف أشكالها.. وكان لابد أن أكون واحدا من هؤلاء، ومستعد لأدفع أي ثمن تطلبه، أخذت ورقة صغيرة و دونت فيها رقم هاتفي.. اعتذرت من صديقتها و انصرفت بعد أن وضعت تلك الورقة فوق طاولة الأميرة البكماء، راقبتها وهي تضعها في جيبها و أسرعت الخطى إلى غرفتي كي أشغل الهاتف علها تتصل قريبا، كنت أجري كمن تأخر على الحافلة، وصلت وأخذت أبحث عن الهاتف الملعون، أين وضعته! أخيرا وجدته تحت الوسادة، ارتميت فوق السرير، أشعلت سيجارة

أترقب اتصالا منها، مرت ساعة ولا شيء بعد، بدأت أفقد حماسي شيئا فشيئا، انتظرت طويلا ولا إشارة، خاب أملي، الرغبة كانت تقتلني، جسدها الهائج لم يفارق عيناي، تخيلتها تتعرى أمامي، قطعة قطعة، فأرى نهديها المكورين وما بين فخديها، انحناءة وركيها، لأجد نفسي أستمني بدون شعور.

أربعة أيام أخرى وأنا أطوف في الغرفة و لا خبر من البكماء، أحس بإرهاق شديد من كثرة الشراب و التدخين، أنفاسي تتقطع، تنصلت من كل ملابسي، بقيت عاريا لا يسترني سوى سروال داخلي أسود، لكن رسالة قصيرة من البكماء في اليوم الخامس كانت كفيلة لتغير مزاجي، الأميرة تريد مقابلتي، أخيرا وبعد طول انتظار، كنت أعتقد أنها نسيت أمري، التقينا في نفس المقهى، هذه المرة كانت جريئة أكثر، لم تسلم علي بيدها بل وضعت قبلتين في خداي، وكأنها تعرفني من قبل، جلست أمامي، تبتسم طوال الوقت، و أنا كذالك كنت أبتسم في وجهها الجميل، أخرجت ورقة وقلم من حقيبتها الفاخرة و كتبت: هل أنت مغربي حقا؟ و لأنني متعود على هذا السؤال أجبت: نعم للأسف! لتكتب مجددا: وجهك خليجي إلى حد كبير، أجبت بسخرية: آسف لتخييب ظنك، أنا مغربي لسوء حظي.. سكتت قليلا وكتبت: لنذهب إلى

منزلك، سئمت المكان هنا! أجبت ضاحكا: فكرة رائعة لنذهب إلى منزلي..

عقارب الساعة كانت تشير إلى الخامسة و النصف مساءا، وصلنا إلى منزلي الفخم. أسندت ظهرها على جدار الغرفة و أخذت تجول بعينيها في تلك الفوضى وتبتسم، اقتربت منها وقلت: أذهلتك فخامة منزلي على ما يبدوا! هزت كتفها و ابتسمت، اقتربت منها أكثر، حتى داعبت أنفاسي وجهها الجميل، أطبقت ذراعي حولها، بدأت أقبل عنقها بهدوء، ظلت جامدة في مكانها، لامست شفتاي شفتيها، لم تتهرب قبلتها بعنف، كنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، أخذت تلمس وجهي وتداعب لحيتي بلطف، عدت أقبلها بحرارة مضاعفة، كانت مثيرة لأقصى الدرجات، تراجعت قليلا لأنظر في عينيها الجميلتين، ثم وضعت يدي على فخدها، نظرت إلي بحنان، ثم عدت ووضعت فمي في النقطة التي يلتقي فيها العنق بالكتف لتزيد هيجانا، مررت بنهديها كأني أرسم حلمتيها برأس لساني، بينما أصابعي تفك باقي أزرار قميصها الأبيض، انتبهت أنها كانت عارية تماما من أي شيء آخر، رحت أتلمسها حتى لمست في الأخير شعر عانتها، دفعتها بلطف فوق السرير، تنصلت من ملابسي كذلك، هذه المرة كلها، ارتميت فوقها وأنا أمص نهديها

حتى بدأت تهدل كحمامة وحيدة في البرد القارص، وضعت حيواني المشتعل في مكانه و اختلطت آهاتها بتنهداتي، استلزم الأمر نصف ساعة حتى ارتوينا نحن الاثنين. استلقيت على ظهري، وأشعلت سيجارة وقامت هي كذالك بنفس الشيء، ننفث الدخان ونراقبه حتى يتلاشى، تذكرت أنني ما زلت أملك قارورة خمر في الخزانة، سكبت كأسين واحد لي و آخر لها، تمددنا في هدوء تام، لكنها كسرت الصمت حين أخذت الورقة والقلم مجددا: وشمك جميل! ماذا يعني؟ نظرت إليها وقلت: يعني أن كل واحد منا نحن البشر سيدفع ثمن أخطائه، سواء كانت مقصودة أم لا، سيدفع الثمن و قد يكون غاليا كما حدث معي. وضعت الورقة جانبا ووضعت رأسها فوق صدري ونامت في هدوء.. لتستيقظ بعد ذلك بساعتين.. الساعة الثامنة، عرضت عليها أن تبقى معي لهذه الليلة وسأدفع أي ثمن تريده، فكرت قليلا ثم استلمت هاتفها، لا أدري ماذا فعلت لكن في الأخير، هزت رأسها بالإيجاب، قبلتها في وجنتيها وكانت سعيدة بذالك.. ما إن عتبت الباب لأجلب العشاء حتى صفعتني برودة خفيفة في وجهي دوختني..

مرحبا أيها العالم الجميل..

عدت حاملا الساندويتشات وبعض الروايات كان صاحبها يبيعها

بثمن بخس جدا، درهمين للراوية، هذا حقا جميل ومزعج في الآن نفسه، وجدت أميرتي البكماء مازالت ممددة وقد بدأ الخمر يلعب بقنة رأسها، ما إن رأتني حتى وقفت لتعانقني، استغربت لفعلها هذا لكني كنت محتاجا لعناق بريء كهذا، صنعت لنا طاولة وفرشتها بجريدة قديمة، بدأنا نأكل وعينانا لا تفارقان بعضهما البعض، أحسست لوهلة أنني أحببتها حقا، كانت بريئة لأقصى الدرجات، نسيت كونها مجرد عاهرة وأن ما تفعله معي الآن تفعله مع غيري، بدأ الخمر يلعب براسي أنا كذالك، كنت أتحدث دون انقطاع، و دون أن أنتظر منها جوابا: صدقيني يا صغيرتي لو التقينا في عالم أفضل، لما تركت الكلاب تنهشك، لتزوجتك وصنتك ومت من أجلك، لكن حظنا نحن الاثنين عاثر و أعتقد أنه سيبقى على نفس الحال، وقفت أجول الغرفة جيئة وذهابا مطأطئ الرأس، توقفت هي عن الأكل، وجعلت تراقبني بصمت، توقفت في زاوية الغرفة حين اكتسح خيالي شبح الذكرى، ذكرى صغيرتي التي قتلناها، فألهب كياني شواط من نار، سرت على أطرافي قشعريرة باردة، أحسست حينها بغضب شديد، تملكني لحد الجنون، لكني استجمعت قواي كي لا تبدوا معالمه في صفحة وجهي، استدرت ووجدتها ما زالت تراقبني و تتعجب، سألتها ما اسمك على فكرة؟ ابتسمت ولم تجب..

أنا اسمي زياد وصدقيني أنت أجمل ما حدث لي منذ مدة طويلة.
سكبت لي كأسا آخر وارتميت في السرير أدخن في حين وقفت هي تذرع الغرفة جيئة وذهابا بدورها.
كنت لا أرى سوى ساقيها الخارقتين، ابتسمت حين رأتني متعلقا بساقيها، فاقتربت مني، لم أتوقع أن يكون جسدها بهذا الجمال وهي تقف أمامي عارية تماما تنتظر ردة فعلي، أخذت أمرغ شفتاي على ساقيها والحس بشرتها الناعمة حتى بلغت ما بين فخديها، مررت بلساني على معدتها إلى أن وصلت إلى نهديها، أمصهما بعنف، استدارت فركبتها من الخلف وأنا أمخضها حتى سقطنا لاهثين من تحت السرير، و أخدنا نضحك بصوت مسموع، جمدنا لمدة كأن الزمن توقف عن الحركة فجأة، وكأن لا شيء هناك سوانا، كان العالم كله بعيدا، بقيت ممددا بجانبها أنظر إلى المصباح، لم أشأ أن أسألها عن حياتها وعن مشاكلها وكيف لجأت إلى الدعارة وغيرها من الأسئلة التي أعرف جوابها مسبقا، العاهرات كلهن يقنعن نفسهن أنهن ضحية المجتمع، لكن في الحقيقة هن ضحية الغباء والشراهة، يسلكن الطريق الأسهل لتلبية بعض الكماليات التافهة، ففي الأخير لا عذر لأي فتاة بأن تبيع شرفها وشرف أهلها بحجة المال.
شعرت بدوار خفيف في رأسي، وقفت وقد تملكتني رغبة ملحة في

الخروج والمشي على جنبات البحر،كان الوقت متأخرا، أشرت لها أنني سأعود، هزت رأسها وأخذت تدخن..

صمت رهيب يلف المكان الذي يدور في عيني، بضع أشخاص وبضع سيارات أغلبها سيارات أجرة زرقاء، حاولت أن أتمشى مشية مستقيمة فلم أستطع، جرجرت رجلاي في الشارع الطويل وأنا أتمايل، أخيرا وصلت، تكومت في الرمل أراقب سواد البحر، تذكرت أمي، لم تكلمني منذ شهرين تقريبا، لكن وبالرغم من اختلافاتنا المتكررة، إلا أنني أطلب الله دائما أن يجعل يومي قبل يومها، تلك المجنونة الغريبة، أحسست بغصة في حلقي، برغبة كبيرة في البكاء، الرجل لا يبكي، لكنه يبقى إنسانا، والإنسان لا يقوى في بعض اللحظات على هزم ذلك الكائن الضعيف الذي يعيش بداخله، ذلك الطفل البريء.. أخاف حقا أن أنتحب على أمي إن رحلت قبلي، أخاف أن يتسع سجني، أخاف أن يحاصرني المطبخ المرتب، أن يحاصرني ذلك الركن الذي تجلس فيه وهي تتابع مسلسلاتها كل يوم، أخاف أن يستفزني صدى تعليقاتها المتكررة، أخاف أن أناديها ولا أسمع سوى جواب الصمت المقيت، أخاف أن ألتفت من حين لأخر خشية صوتها أو شيء قد يتولد من الفراغ و أحيانا أخرى أخاف ألا أحزن عليها، أخاف أن ترفض عيناي البكاء على

رحيلها..

غادرت الجميلة باكرا، أدركت ذلك وأنا أقرأ الرسالة التي تركتها بجانب رأسي: آسفة لأني غادرت باكرا، الحق أنني استمتعت معك، ولأول مرة يعاملني أحدهم كإنسانة وليس مجرد جسد يضاجعه.. سأتذكر كلامك جيدا، وأعدك أن أحاول التغيير، فكما قلت لا شيء يدوم طويلا ولا شيء يستحق أن نخسر الدنيا من أجله.

ملاحظة: تفقد الخزانة الصغيرة، هناك شيء قد يساعدك للخروج من هذا العالم ولو لدقائق.

وحيدا داخل الجدران الأربعة مجددا، بعد الليلة الجامحة أصبحت هادئا جدا كرجل يتبول في متنزه دون أي اهتمام أو قلق من العالم، كأن لي معطف خفي يعزلني عن العالم هنا، تناولت هدية البكماء دون تردد، كانت مجرد حبة زرقاء، تمددت قليلا لأنتبه بعدها بلحظات إلى عرق يتصبب مني بشكل مفاجئ، ظننت الأمر عاديا لأني لم أغادر الغرفة طوال اليوم، العرق البارد مازال يتصبب مني وبدأت أشعر بألم شديد في الجهة اليسرى من رأسي، يبدوا أن السجائر والخمر قد قاما بعملهما، لم أعد أستطيع التفكير أو حتى من رفع رأسي عن الوسادة، كبر الصداع حتى أحسست بخوف شديد من أن تكون البكماء قد نقلت إلي مرض ما بطريقة ما،

صداع ممزوج برعشة غريبة جعلتني أدخل في متاهة من الخيال المخيف، ظهر طيف أمي فجأة، كان حقيقيا إلى حد كبير، تصرخ في وجهي: أنت حيوان عديم الرحمة، لماذا قتلت حفيدتي لماذا؟ ثم من تكون تلك العاهرة المدعوة هدى؟ أنا أعلم كل شيء ولن أغفر لكم، عليكم اللعنة.. حاولت الرد عليها دون جدوى، اختفى الطيف لتظهر أطياف أخرى، هدى، طفلتي، إسماعيل، أبي و حتى طيفي أنا كان هناك بينهم يجلس في الركن يراقب الأحداث، كانوا ينظرون إلي فقط.. تجاهلتهم وحولت نظري إلى طفلتي الصغيرة، آه كم أنت جميلة، كبرت حقا، خاطبت هدى كم عمرها الآن؟ لكن لا جواب، اختفت الأطياف.. مياه لزجة وباردة بدأت تسيل من أنفي، شعرت بعدها بحمى غزت كل جسمي، و برأسي يفور فورانا قويا، شل جسدي، لم أعد أستطيع تحريك يداي أو رجلاي، أو حتى فمي، حاولت أن أصرخ لعل أحد الجيران يسمعني، لكن دون جدوى، شل لساني كذلك، لم أعرف ما أفعل فجعلت أنظر إلى سقف الغرفة فقط، أراقب تلك الحشرة التائهة وهي ترفرف حول المصباح، اشتد ضوء المصباح فجأة فأحسست أن كل أطراف جسدي ارتخت إلى الأبد، لم أعد أستطيع تحريك عضلة واحدة في جسمي سوى عينان اللتان بقيتا نصف مفتوحتين، أحسست أني

أنقضي شيئا فشيئا، و أن كل شيء يزداد بعدا، ثم أغمي علي.
كان مفعول تلك الحبة الصغيرة قويا جدا و أحيا الماضي بداخلي مجددا، الماضي كله بأدق تفاصيله، من أول صرخة لي إلى هذه اللحظة، خمسة وعشرون سنة، لا أدري هل عشتها أم هي التي عاشتني، جلست القرفصاء في زاوية الغرفة أحدث نفسي علني أحد من صراعها المحتدم، أهدئ روعها المفتعل، أتساءل، أأبقى عاقلا أم أستكين للجنون؟ أم أستسلم لفكرة الهجرة و الرحيل التي لطالما راودتني؟ أم أتصلب ممتنعا كعادتي أمام هذا الواقع المر؟
ارتميت في السرير البالي، نتج عن ذلك صوت مزعج، شعرت وكأنني آلمته حقا، تمددت وكأني أعرف ماذا سأفعل، عصفت بي الوحدة ورمتني في غياهب التفكير في شيء لطالما تجاهلته، في المستقبل! و أي مستقبل! كيف أفوز عليه و أنا اليوم أعيش في تابوت الأحياء؟ و أنا تائه في عالم من المتناقضات، حيث اختلط الحابل بالنابل، العاقل بالأحمق..
أحتاج للتغيير، و التغيير يحتاج إلى خطة منظمة و مدروسة، التغيير يجب أن يأتي على كل جوانب حياتي، يجب أن يكون تغييرا جذريا، أي يلزمني أن أبدأ من الصفر مجددا، يجب أن أسافر، أن أغيب عن الديار، أن أهجر المدينة، الأهل، الناس و الوطن.. نعم، سأهجر

هذا الوطن الغريب، أنا لا أنتمي إلى هذا المكان المقرف، سأتخلص من مخالب الفاقة والبؤس و جحيم البطالة والتعاسة الملعونة، غريب في وطن غريب أهون لي من غريب في وطني.

بعد أيام من التخطيط و التفكير، غادرت الغرفة الهادئة، و عدت إلى البيت وكلي أمل أن تنجح الخطة، كنت قد تلقيت مكالمة من أخي و أخبرني أنني مدعو لعرس ابنة عمي التي كانت مصرة على حضوري، هذه فرصة لأصالح الجميع تماما كما خططت، يبدوا أن الحظ يقف بجانبي هذه المرة.

على مائدة الطعام، كانوا يتحدثون عن أمور ذلك العرس، كنت صامتا أراقبهم وكأني مجرد ضيف أسمع حديثهم المكرر، أبي ليس سعيدا لأنه سيخسر المزيد من المال على غير العادة، لا يبدوا سعيدا بالرغم من أنه عرس ابنة أخيه، أمي كعادتها تفكر في الهدية التي ستقدمها، في الوقت الذي يجب عليها أن تسأل عن أغلى الهدايا أخذت تتقشف، ما أحقركم! كنت جالسا أخطط في صمت، قرروا السفر قبل أسبوع من موعد العرس لأنه سيقام في مدينة أكادير جنوب المملكة، ما يعني أنني سأبقى وحيدا في البيت ما يمنحني فرصة الاستعداد للرحيل بهدوء. أخبرتهم أنني سألحق بهم فيما بعد بذريعة أن عملا ما ينتظرني، وفعلا كان لدي عمل أقوم به وهو

تزوير توقيع أبي في شيك يحمل اسمه، نعم سأسرق أبي.. توقيعه كان بسيطا جدا ولم يتطلب مني وقتا طويلا..

انتظرت إلى حين رحيلهم وقمت بعملية حسابية للمصاريف التي سأحتاجها للسفر إلى تركيا.. ثلاثة ملايين تبدوا مناسبة على ما أعتقد.

سأسافر إلى تركيا لأنها لا تتطلب الحصول على الفيزا وكل تلك التعقيدات الإدارية، وهناك قد أعبر إلى بلاد أخرى، من يدري! المهم الآن أن أخرج من هذا المكان الملعون..

لم يكن الحصول على تذكرة السفر صعبا، اتصال سريع بسيميكا كان كافيا، سيميكا هو صديقي من الكونكو برازافيل، يسكن الرباط كذلك، كنت قد تعرفت عليه في حفلة عيد ميلاد أحد الأصدقاء، منذ سنة تقريبا، بقينا على اتصال لأنه كان طامعا في أن أعرفه على إحدى الفتيات المغربيات، أتذكر أنه أخبرني يوما أنه لو حصل على فتاة مغربية سيلتزم وسيصلي في الوقت و يبتعد عن المحرمات، سيميكا مسلم كذلك لكن لكل عيوبه.. اتصلت بأمي بعد يومين من حصولي على المال و التذكرة، أخبرتها أنني لن أتمكن من الحضور لأني معلق في عملي الجديد، وطلبت منها أن تعتذر لعمتي على عدم حضوري، أعلم أنهم لن يلاحظوا غيابي أصلا فأنا

دائما غائب عن المناسبات العائلية رغم نذرتها، أمي كانت سعيدة لأني وجدت عملا ولا تعلم أن هذه آخر مرة ستسمع فيها صوتي.

و يأتي اليوم الموعود، تأتي لحظة حسم القرار، القرار الذي لا رجعة فيه، الهرب ولو عبر الجحيم إلى الجحيم.

كنت في عداد الراحلين، لم أفكر في هذا أو ذاك، أغلقت كل المنافذ التي قد تؤدي بي إلى التفكير في أي شيء.

وقفت أمام الجمركي في المطار حاملا معي أحلامي و أملي في الأفضل و في يدي حقيبتي الصغيرة.. وقفت شامخا أبتسم في وجهه، سألني ببرود واضح:

_ ما سبب الزيارة؟

أردت أن أخرجه من بروده و أجبت مازحا:

_ سأعبر من تركيا إلى سوريا لأقاتل مع داعش دفاعا عن بشار، من ثم سأرحل إلى اليمن لأساند إيران ضدا في السعودية، و من يدري قد انشأ منظمتي أنا كذلك هناك في أرض الدمار و الدماء.

تفاجئ من ردي وقال بنفس البرود:

_ يبدوا أنك تعرف الكثير من أمور السياسة؟

_ أعرف فقط ما يريدونني أن أعرف، ما يبثونه في قنواتهم الكاذبة.

_ جيد

_ أمزح، أنا في نزهة فقط، سائح تائه إن أردت.

تفقد جواز سفري عدة مرات، و في كل مرة ينظر إلى وجهي، وكأنه

لم يستطع أن يتعرف علي من خلال صورة الجواز، الحق أن الصورة لا تشبهني فوجهي الآن يكاد يظهر وسط لحية مبعثرة، و لو طلب مني بطاقتي التعريفية لاتهمني بالتزوير. بعدها طلب مني أن أنتظر حتى ينتهي من الأمور الروتينية المعتادة، لم أعرف عن أي أمور يتحدث فهذه أول مرة لي في المطار، لكني لم أمانع ورحت أبحث عن مكان أجلس فيه، جلست أفكر وأتخيل رد فعل أبي حين يكتشف أنني سرقت ماله، لا أنكر أنني أحسست بضحك هستيري لمجرد تخيل وجهه الكئيب، لكن في الآن ذاته أشعر بالحنق، فقد يصاب بجلطة دماغية لا قدر الله، فثلاثة ملايين مبلغ كبير بالنسبة لمحبي المال مثله بالرغم من أنهم يملكون الكثير.. ما زلت أتذكر يوم اتهمني بأني سرقت مبلغ مائتي درهم.. كان غاضبا جدا، لم ينم تلك الليلة، وفي عشية اليوم الموالي عاد إلى البيت ووجهه تعلوه ابتسامة غريبة، المئتا درهم كانتا في جيبه طوال الوقت، لم أقل شيئا حينها، تركت الأمر يمر بسلام ووعدته أن يكون اتهامه في محله في المرة المقبلة، و ها أنا أفي بوعدي.

نسيت أمر أبي وأمر المسافرين من حولي و عناقاتهم المبالغ في أمرها، ونسجت لنفسي في خيالي الحياة التي أريدها هناك. تخليت عن تشاؤمي الدائم و سمحت للتفاؤل أن يظهر أخيرا، أخذت أغوص

في دروب اسطنبول، أحملق في وجوه سكانها التي تشبهني كثيرا، أصطدم بفتاة إسطنبولية جميلة، أعتذر وتقبل اعتذاري بابتسامة أجمل، أعرض عليها كأسا من الشاي التركي الذي تعودت رؤيته في مسلسلاتهم الكثيرة، تقبل بسرور.. أعود إلى بيتي الذي أكتريته بمال أبي، بيت مناسب.. في كل ركن منه يتشكل منظر مستقل، سرير كبير على اليمين، طاولة زجاجية في الوسط، حمام في اليسار وفي أخره مطبخ صغير.. أستحم و ألبس ملابسي التركية الجديدة، أعود لأجد الجميلة تنتظرني في المقهى الذي اتفقنا عليه.. مقهى بجانبه بركة مائية نقية يسبح فيها البط، طاولات وكراسي خشبية، تراني وتبتسم، لا تعاتبني على تأخري، أجلس قبالتها نرتشف الشاي اللذيذ، أسألها عن اسمها وتقول ا لجين، لن أضيع الوقت و سأطلب منها الزواج، لن أبالي كم عاشقا قبل شفتيها قبل، فأنا بدوري قبلت الكثيرات، تقبل الزواج بي، نتزوج بسرعة وبدون عرس ولا تكلفة، تنتقل للعيش معي في منزلي المتواضع، تبعدني عن الناس وتنسيني وجودهم، ليس بالمضاجعة فقط إنما بلمسات يديها المسكنة، و كلماتها الرقيقة الرنانة، بأفكارها المتدفقة بالطموح و النجاح.. أجد عملا مناسبا، أعمل بجد، بعد تسعة أشهر نرزق بطفلة جميلة كأمها، أسميها جاسمين و نعيش في هدوء وسلام.. أريد أن يكون

كل شيء سريعا، لا مزيد من هدر الوقت.. فلماذا لا تكون الأمور بهذه البساطة؟ أنا لا أطمع في شيء أكثر من حياة بسيطة، فلماذا يتطلب الأمر الكثير و الكثير من المعاناة ليتحقق؟ هذا إن تحقق فعلا.

انتبهت إلى أن انتظاري طال طويلا، مللت وأشرت للجمركي الذي أشار إلي بدوره بأن أنتظر خمسة دقائق أخرى فقط، ابتسمت له، لن أعترض ما دمت سأرحل في النهاية، استعرت مجلة كانت بجانبي، رحت أتفحصها وفي كل مرة أنظر إلى الجمركي عله ينهي عمله الروتيني المعقد و يتركني أرحل في حال سبيلي.

أخذ الملل يتسلل إلي ليرميني في حضن الذكريات مجددا، أغمض جفناي بهدوء، طيف أمي يظهر من جديد، لكنها هذه المرة حزينة، تنظر إلي دون أن تكلمني، ظلت صامتة، تساؤلات عديدة تحوم حول رأسي.. عملاقين طويلي القامة، قويي البنية يظهران من الفراغ، يقفان أمامي بنظاراتهما السوداء، قطعا علي شريط تساؤلاتي، لابد أنهم من الشرطة، ولابد أن هذا جزء من العمل الروتيني كذالك.

_ بطاقتك التعريفية؟

ناولته إياها ووضعها في جيبه دون النظر إليها حتى! ماذا هناك؟

أجاب و الشرر يتطاير من عينيه: تفضل معنا.

ـ إلى أين؟

لم أتلقى جوابا لأجدني في المقعد الخلفي لسيارتهم، مكتوف الأيدي بقيد من حديد، رحت أتساءل: ماذا اقترفت؟ هل كشف أبي أمر الشيك بهذه السرعة وشكاني إليهم؟ لماذا قيدوني وكأني رئيس منظمة إرهابية؟ و كأنما أنا متهم باغتيال الملك؟ أيكون لإسماعيل علاقة بهذا؟ استفسرتهم بهدوء: بماذا تتهمونني؟ أنا لا أفهم شيئا. أجاب أحدهم: كلكم لا تفهمون شيئا يا جرذان! انتظر ستفهم قريبا.

في المخفر فتشوني بعناية دقيقة، حقيبتي لا تحوي سوى بعض الملابس الداخلية وعلبة سجائر، ثم أخضعوني لاستنطاق دقيق:

ـ لعلمك لقد قابلنا العديد من الكلاب أصحاب اللحايا أمثالك، لدى لا تتذاكى وتضيع وقتنا.

ـ للحية علاقة في الأمر إذن! أتقول أنني إرهابي؟

ـ ماذا ستفعل في تركيا؟ هل أغروك أنت كذالك بالمال؟

ضحكت ساخرا:

ـ الجمركي الملعون إذن! لقد كنت أمزح فقط يا سادة، أيعقل ألا نمزح بشيء هو في الأصل أكبر مزحة في عصرنا؟

ـ لقد تفقدنا حسابك الفايسبوكي، وما تنشره يدل على ميولك

الإرهابية..

_ دليلكم هو الفايسبوك إذن؟

_ أصمت يا حيوان

ابتسامة غريبة اعتلت وجهي، ليس غريبا أن تكون المخابرات المغربية من أقوى المخابرات عالميا في هذا الوقت، فهم سيجعلونك أن تعترف بأنك كلب ولو كنت قطا.. ستعترف بأشياء لم تفعلها ولم تفكر فيها حتى، لدى قررت الصمت حتى ينتهوا من هرائهم، طال صمتي وازدادت حدة تعاملهم معي:

_ جرذ آخر لعبت الثعالب بعقله، تأكد أننا نتعامل مع أمثالك لسنين طويلة، ستعترف شئت أم أبيت.

_ نعم أنا مع الإرهاب ما دمتم تصنفونني من فئة الكلاب، ما دمتم تسرقون أحلامي البسيطة واحدا تلو الآخر. ألا يكفيكم أنني رحلت وتركت لكم كل شيء؟

حاولت أن أشرح لهم مرة أخرى أنني إنسان بسيط، مغلوب على أمري، لا أريد سوى النجاة بما تبقى من حياتي، أنا بريء.. لكن دون جدوى بل زاد صراخهم وأخذت الأمور منحى آخر، فقد تهاوت الضربات على رقبتي الرقيقة حتى كادت تقسمها، لكم وركل في جميع أنحاء جسمي، لحظتها تمنيت حقا لو أنني راحل حقا

للانضمام لداعش، قد أستحق هذا الضرب واللكم حينها، بل ولن أبالي بما قد يحل بي، ثم ودون سابق إنذار توقفوا ووضعوا عصابة في عيناي و أخذوني إلى مكان آخر، كان مغمى علي حينها فلم أحس بشيء حتى وجدت نفسي مرميا هناك، الرائحة كانت عفنة، نتنة إلى درجة لا يتصورها عقل، و كأن أحدهم مات هنا وتركت جثته تتعفن، مكان تغشاه الظلمة و الوحشية، زحفت إلى الزاوية، أتضور ألما وجوعا، أنظر حولي بخوف شديد حتى خيل لي أنني أرى أقداما وسيقانا حولي.

لم أعد أحس بأعضائي من شدة الألم، أحسست بالقرف وقد أدركت أنني مجرد كلب ضال، العظام تداخلت في بعضها، انكسرت وتلعثم ترتيبها، لم أملك سوى التكوم كقطعة قماش رث و النظر إلى نفسي من الداخل.

كف ديناصوري انتشلتني من على الأرض البارد و أعادتني إلى الغرفة الأخرى من جديد ، أخذت أحسب أطرافي كي لا أكون قد فقدت يدا أو رجلا دون أن أحس، جلست على الكرسي بصعوبة، مؤخرتي تؤلمني هي كذالك، عيناي كانتا مغمضتان ولم أستطع فتحهما لشدة الضوء في الغرفة..

_ حسنا، أعتقد أنك عدت إلى صوابك و ستعترف

_ .....

_ اعترف يا زياد أحسن لك

_ .....

_ زياد

_ .....

_ زياد ! استيقظ

فتحت عيناي لأجد نفسي مازلت جالسا في المطار، و الجمركي ينادي بإسمي، شعرت بإحراج شديد، حين وجدت الناس تنظر إلي و الجمركي يحاول إيقاظي من النوم، لكن في نفس الوقت ابتسمت في وجهه و قلت: أيها الجمركي الملعون.. إبتسم بدوره و سلم لي أوراقي..

كانت هذه أول مرة أركب فيها الطائرة، كان إحساسا جميلا أن تحلق في السماء كالسراب تاركا وراءك كل شيء، شعرت بخوف طفيف في بداية إقلاعها لكن سرعان ما تلاشى وأنا أنظر من النافذة الصغيرة، أنظر إلى الوطن الذي مازال يرصدني بنظراته الباردة من هناك، مازال يتعمد كسري رغم انهزامه أمامي، تجاهلته وأشحت نظري عنه، وجهي تعتليه ابتسامة الجوكر.. أخيرا سأترك تعاستي هناك لتجد شخصا آخر غيري، وما أكثر التعساء في بلادي، بجانبي رجل يعبث بحبات مسبحة من شدة الخوف، أبتسم في وجهه في كل مرة ينظر إلي، غاضه هدوئي وقال:

_ لابد أنك اعتدت ركوب الطائرة؟

_ لا بالعكس، هذه أول مرة.

_ عجيب، هذه خامس مرة لي ومازلت أشعر بخوف شديد.

_ هذا لأنك تخاف الموت يا عمي.

يبدوا أن جوابي أقنعه، فسكت وعدت أنا أنظر من النافذة، ابتعدنا كثيرا الآن، لم أعد أرى سوى الغيوم، فضاء شاسع لا حدود له، استسلمت لأفكاري التي اكتساها طابع الجد و التوعد.. هذه فرصتي لأثبت لأبي أنني لست فاشلا كما يظن، أبي الذي لطالما عزف بأبوته أبشع سيمفونيات الإهمال حيت تختلف عنده مفاهيم

الاهتمام، وهو الوحيد الذي يرى أبناءه مجرد مخلوقات لم ولن تحقق شيئا في حياتها.
أخذت أعيد تفكيك وتركيب ميكانيزمات دماغي لأستعد جيدا للأيام المرتقبة، أحوم شاردا حول السعادة المنتظرة ، حول الاستقرار المفقود، يدغدغ الأمل أعصابي اليائسة ، يداعبها بحنان، يغطيها بدفء اللقطات الرومانسية التي يشكلها الخيال مع ايلين ، سأبحث عنها وسأجدها حتما.. يسري في جسدي خدر أثيري لذيذ ، فأغفو للحظات.

الساعة الثانية عشر ظهرا، دخلت الأراضي التركية لأول مرة في حياتي، تفقدت حقيبتي التي كانت ترتعد بيت أصابعي، رحت أتمشى تحت شمس إسطنبول لأول مرة، تبدوا مختلفة عن شمس الرباط، ربما لأنني كنت متأكدا من أن تركيا هي فعلا شمس الشموس، كنت أتجول كالدمعة الهاربة من أجفان التعاسة، دمعة سعيدة بإطلاق سراحها أخيرا، وصلت إلى الفندق الذي حجزت فيه مسبقا، كان هادئا ومنظما ومتواضعا إلى حد ما ، بالرغم من أن موقعه جاء في حي راقي..
إقامتي هناك استغرقت أربعة أيام فقط، بعدها انتقلت إلى إحدى

الأحياء الفقيرة اقتصادا للمال الذي أملكه، غرفة بسيطة تعود ملكيتها لعجوز في السبعينيات من عمره، إسمه مسعود.. مسعود يسكن وحيدا، حركته بطيئة مترهلة، يداه الكبيرتان وبقايا شعيراته البيضاء كانت بقايا شباب مكسر على الأغلب، أخبرته أن هذه أول مرة أزور فيها تركيا وأنني لا أنوي الرحيل عنها أبدا، سأبقى هنا وأموت هنا وأدفن هنا.. أعجبه شغفي ببلاده فقرر أن يمنحني إقامة مجانية لمدة شهر كامل، بل وحتى وجبات مجانية كذلك. أدمنت شرب الشاي الذي يعده مسعود، وأدمنت كذلك القصص التي كان يرويها لي كل ليلة طوال مدة إقامتي هناك، لاحظت من خلال حديثه أنه يعاني من حزن عظيم، حزن اسمه الفقدان.. لحظات جميلة أقضيها معه نتناوب على الشيشة ونرتشف كؤوس الشاي.. ذكرني في تلك اللحظات التي كنت أسرقها كل آخر أسبوع، أنا و صديقي مُحَمَّد، نركب الدراجة النارية الخاصة بمقر عمله، كان يفضل أن نموت ولا يحدث أي شيء للدراجة.. نصرخ عاليا أحيانا فوقها، نختفي لننعم ببعض النشوة في مقهى النخيل، حيث الشاي و الشيشة.

تمر الأيام ببطء هنا، سأحتاج حتما إلى زمن لأتحرر نهائيا من قبضة الذكرى والتعاسة، إلى زمن لأركض وأعشق وأحب كالآخرين..

مرت الأسابيع الثلاثة الأولى في غرفتي الجديدة.. تخلصت فيها من آخر ذكرى قد تزعجني مستقبلا، أصبحت الآن مستعدا لمواجهة العالم، لمواجهة قدري على وجه الخصوص.

بدأت رحلتي في البحث عن سعادتي المنشودة في منطقة أمينونو، المنطقة التي لا تهدأ على مدار الأسبوع، كيف لا وهي المنطقة الأكثر استقبالا للسياح الذين يفضلونها لعبقها التاريخي وطقوسها الخاصة و تقاليدها العريقة.. كيف لا و بها محطة الحافلات التي توصل إلى أي مكان في تركيا، كيف لا وهي المنطقة المعروفة بمطاعم الأسماك الشهيرة، تلك المطاعم الجميلة التي هي عبارة عن مراكب صغيرة يتم شواء السمك فيها.. أتجول كثيرا في المنطقة، متسائلا ماذا عساني أجد هنا؟ حظي الذي انتظرته طويلا؟ حريتي المقيدة منذ زمن بعيد؟ زوجتي الوهمية؟ آلاف الأسئلة ولم أجد جوابا مقنعا بعد.

الشارع الطويل يستقبلني للمرة المليون، لم أشك فيه يوما من ابتسامته العريضة الصاخبة، لم أشك في أي شيء من حولي... كان علي أبحث عن بطلتي الأسطورية ايلين لتمنحني الجنون، و تعيدني إلى سابق عهدي، مجنونا، حتى تفوز مثاليتي أخيرا، لكن يبدوا أن زمن الأساطير قد انتهى و ولى إلى غير رجعة، وعلي الآن

أن أزيل الأقنعة التي كنت أرتديها لأغير أيام الرباط بأيام اسطنبول ، شارع آخر يتمدد أمامي، يبتسم كغيره، يبدوا صامتا بشكل مختلف، لا أريد معرفة اسمه، ففي كل الأحوال سنتزاحم كثيرا مع الأيام..

_ منك أيها الشارع الجميل أعلن ولادتي _

بهدوء جاحد و ابتسامة لا تفارق ثغري و إحساس بالجنون، سعيت في الشارع، أعطف يمينا ويسارا، أحمل سيجارتي مؤنستي الوحيدة..

صوت إبراهيم تاتليس يدغدغ أذناي، صوت السيد إبراهيم يهطل فوق مآذن روحي بالرغم من أني لا أفهم كلمات أغانيه بعد، صوته كمطر دافئ يغسلني من الداخل ويغسل بساتين قلبي الملوثة أيضا، تعبت من المشي، ارتكنت على مائدة في إحدى مقاهي الشارع الجميل، شكل المقاهي هنا مختلف تماما عن مقاهي الرباط..

ديكورات مغربية، كراسي مريحة، صور جميلة في كل مكان، الكل يبتسم في وجهك ولا يجعلونك تنتظر طويلا.. طلبت قهوة سوداء هذه المرة، فقد بدأت أمل من الشاي، وبسرعة أحضرها النادل وهو يبتسم في وجهي، ابتسمت له بدوري، أعلم أنه يتملقني لكن هذا جزء من عمله، نظرة خاطفة على الجالسين، المقهى كان هادئا، ثلة من الطلبة على ما أعتقد يتحدثون أمامي بلغة تركية جميلة..

يتحدثون بهدوء تام.. وحتى إن ارتفع صوت أحدهم ينبهه الآخرون.

منظر جميل حقا.

أخذت ارتشف القهوة، تبدوا مختلفة عن قهوة الرباط، أول فنجان قهوة يحظى مني بالإعجاب والتقدير، لدى كان لزاما أن أمزجه بسيجارة تزيد من نشوتي، أخرجت علبة السجائر من جيب معطفي الجديد، نعم لقد اقتنيت معطفا أسودا تركيا أنيقا، أخرجت سيجارتي بهدوء، وضعتها في فمي المرتعد، وقبل أن أرميها بالنار، فاجئني صوت ملائكي أتى من خلفي:

_ أنت تعلم أن التدخين مضر بالصحة!

استدرت أبحث بين جلساء المقهى عن صاحبة الصوت الدافئ، فتاة تبتسم في وجهي، التقت نظراتنا، بادلتها الابتسامة، وجه ملائكي جميل، تبدوا تماما كبطلتي الأسطورية، تجلس وحيدة تحمل في يديها الناعمتين رواية انجليزية.. الحق أن ابتسامتها وثقتها في نفسها أسرتني بسرعة فقلت:

_ أحقا تخافين على صحة شخص غريب أم أنك لا تريدين أن أزعجك بدخاني ليس إلا؟

_ الاثنين معا.

في محاولة بائسة مني لاستدراجها إلى طاولتي، أدرت لها بظهري وقلت بثقة:

_ يمكنك أن تنضمي إلى طاولتي إن شئت، هكذا سأنفث الدخان إلى الجهة الأخرى ولن يزعجك.. ثم أشعلت السيجارة غير مبال بردها.. خيم الصمت قليلا لأجدها تجلس أمامي، عيناها البريئتين في روايتها وكأنني غير موجود.

يبدوا أن الدخان يزعجها حقا.. و احتراما لجرأتها، أطفئت السيجارة ورميت علبة السجائر كاملة في سلة المهملات وأنا في طريقي للمرحاض، عدت بعدها وجلست أتأملها وهي غارقة في روايتها، رفعت رأسها لتجدني ساهما في وجهها الجميل، وقالت بعد أن أزاحت عينيها عن وجهي:

_ أحقا ستتوقف عن التدخين من أجل غريبة أم أنك تريد إثارة انتباهي ليس إلا؟

_ الاثنين معا..

ابتسمت ووضعت روايتها جانبا، و أخذت تحدثني بحماس واضح، تعرفت عليها في دقائق فقط، لم أسألها عن اسمها لأنني سأناديها بايلين مهما كان اسمها.. أحسسنا بارتياح نفسي لبعضنا البعض، فانتقلنا من الابتسام إلى الهمس، لا أعرف كيف تم ذلك لكنه تم.. دفعت ثمن قهوتنا و دعتني للمشي.. اكتفيت أنا بهز رأسي بالإيجاب ووضعت البقشيش في جيب النادل ثمنا لابتسامته.

السابعة مساءا، خرجنا صوب الشارع وعواطفنا قد هاجت، رميت يدي إلى يدها وكأنني اعرفها منذ مدة، لم تعترض و سلمت لي يدها الحريرية و كأنها التقت بي من قبل.. أخذنا الطريق سويا جنبا إلى جنب، ننعطف إلى الأزقة بدون اتجاه، نتوقف أحيانا حين نختلف في شيء نناقشه.. كانت صعبة المراس لكن سرعان ما أقنعها بفكرة ما.. صادف أني كنت قد قرأت الرواية التي كانت تحملها، فأخذنا نتحدث عنها وعن شخصياتها..

الحقيقة أنني شعرت بفرحة مجنونة وبجانبي فتاتي الأسطورية والتي أصبحت حقيقية.. اقتربنا من مقر سكناها، توقفنا قليلا لنودع بعضنا البعض.. أردت الحفاظ بنفس الثقة التي أظهرتها منذ البداية، ولم أطلب رقم هاتفها أو شيء من هذا القبيل، كنت أعلم أنني قد أندم على تصرف طفولي كهذا لكنني تشبثت به، فكما التقينا قبل قليل حتما سنلتقي مرة أخرى، العالم يصبح صغيرا أحيانا.. و أنا غارق في وساوسي.. وضعت هي قبلة بريئة بشفتين دافئتين في خدي الأيمن و انصرفت..

قبلة بريئة كانت كفيلة لتحيط عالمي بفرحة حمقاء، سهمت أراقبها و هي تمشي بثبات حتى اختفت في إحدى الأزقة، ظللت واقفا بعدها لبرهة محاولا أن أستمتع بهذه اللحظة أطول وقت ممكن، أبدوا

وكأنني لم أقابل فتاة من قبل.. وكأنها أول فتاة أتعرف عليها، صحيح أنني قبلت وداعبت الكثيرات لكن إحساسي هذه المرة مختلف بالرغم من أنني لم ألمسها حتى.. يبدوا أن شخصيتها وذكائها هما السبب فيما أحس به ، فلطالما كنت أبحث عن هاتين الصفتين في فتاة ما.

عدت أدراجي أمشي بخطوات متثاقلة، لم أصدق أنني وجدت فتاتي بهذه البساطة.. شكرت الله في نفسي وعدت أسترجع لقائنا هذا في مخيلتي.. كم أطلت النظر في عينيها أثناء تواجدنا بالمقهى، وكم كانت حواسي تخفق لمجرد جلوسها معي.

ما أجملك يا ايلين و ما أقبح بنات الرباط بمطالبهن الكثيرة وأفكارهن الغبية.

تمددت في السرير بعد يوم جميل.. ايلين لا تفارق تفكيري، صاحبة الوجه الحليبي الخالي من أي زغب زائد.. شعر أسود قصير، عينان تميلان إلى الأخضر لكنهما ليستا خضراوتين، لم أستطع مقاومة هذا الوجه الذي تندس في حرير قلبي كعصفور مبلل في ليلة عاصفة، أعترف بأن هذه الفتاة التركية قد صادرت مني في هذه اللحظة تفكيري، منحتني في ساعة واحدة ما لم تستطع منحي إياه العشرات من بنات الرباط طوال عشر سنين.. فهن في النهاية لا يحبن إلا

أنفسهن.

خضت اشتباكا عنيفا مع نفسي ، كنت غبيا ولم أطلب رقمها، أو على الأقل موعدا آخر، وأنا في صراعي مع غبائي، اهتز الهاتف في جيبي.. الهاتف الذي اشتريته فور وصولي إلى إسطنبول، كانت رسالة قصيرة من رقم محلي، غريب فرقمي لا يعرفه أحد ، حتى أنا لا أعرفه ، فتحت الرسالة: كنت أعلم أنك ستكون متعجرفا ولن تطلب رقمي، لدى تواضعت وأخذت رقمك وأنت في المرحاض.. أعدت قراءة الرسالة عدة مرات لأستوعب أنها من _ايلين _ حقا وليس مجرد خدعة من خدع الحواس التي قد توهمني أن هذا يحدث حقا.. استجمعت قواي وأجبت: كنت أعلم.. لذلك تركت هاتفي فوق الطاولة يا ذكية..

لا أنكر أنني بدأت أحبها.. كيف لا أحبها وعطر الإعجاب يستخلص من زهور ابتسامتها، فتاة ذكية ولطيفة وعفوية إلى أقصى الدرجات، وقد تكون أحبتني هي كذلك، فالنساء يملن غالبا إلى الرجل المبهم و الواثق من نفسه، هكذا أنا رجل مبهم إلى درجة التعقيد.

ايلين ستكون أول لؤلؤة في العالم تدحرجت من شوارع إسطنبول لتسقط في سلة قلبي، كيف حدث هذا! لا أعرف و لا أريد أن

أعرف ما دامت حديقة القلب قد أورقت زهرا أخيرا، وتساقط في فمي بلح العشق.. نعم أحببتها وسأمنحها كل الحب الذي راكمته في قلبي لسنين طويلة، سأمنحها ثقتي وصدقي ووقتي ، من أجلها سأسعى حتما إلى تغيير أشياء كثيرة في حياتي، هذا ما قلته لها في لقائنا الثاني بمحاذاة جسر صغير يطل على بركة صغيرة كذلك.. كان كل شيء مثاليا يومها، أو بالأحرى هذا ما أحسست به حينها..

كانت الساعة الثامنة آنذاك.. كنت أنتظرها بشوق في ذلك الجسر الذي لا أعرف اسمه حتى الآن، كل ما أعرفه أنه كان شاهدا على ما حدث.. راقبت وجهها الجميل يظهر شيئا فشيئا على درجات الجسر، و شعرها الأسود القصير يغطي عينيها مع صعود الدرجات، رأتني وابتسمت ابتسامتها الرائعة، إقتربت مني فاحتضنتها، أعتقد أنها كانت بحاجة إلى عناق أكثر مني فاستسلمت لحضني، طال عناقنا وزاد التصاقنا أكثر، أحسست أن كل جوارحي تمسك بها في تلك اللحظة، لا تريد أن تفلتها، الآن فقط عرفت أنني وقعت في الحب أخيرا، أحسست أني فقدت السيطرة على أعضائي كاملة، و كأن لها إرادتها الخاصة والمستقلة، لم أخمن أنها كذلك كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.. كانت وكأنها تطالبني بان أتمسك بها

إلى الأبد.. تراجعت قليلا كي أنظر إلى عينيها و وجنتيها المحمرتين خجلا، لمست وجهها بيداي الباردتين، كانت هادئة وجميلة جدا.. عادت و دفنت وجهها في حضني، أمسكت يدها الدافئة وقبلتها بحرارة.. سرنا قليلا وجلسنا في كرسي خشبي كان ينادينا في حديقة صغيرة بالقرب من الجسر.. وضعت ذراعي حول كتفها، وأمسكت هي بيدي. جلسنا في هدوء دون أن ينطق أحدنا بكلمة، كانت جوارحنا هي التي تتكلم، يدانا تداعبان بعضهما البعض.. عينانا تائهتان في بعضهما البعض.. قلبانا يرقصان فرحا.. اختفى كل شيء من حولنا فجأة .. لم يكن هناك سوانا، نحن الاثنين فقط.. لكنها كسرت الصمت حين قالت:

ـ لم تحدثني قط عنك؟ من أنت؟ ولماذا أحبك دون سابق إنذار وأنا لا أعرف عنك شيئا؟

كان وقع كلمة أحبك في أذني جميلا جدا بالرغم من أنني سمعتها من قبل أكثر من مرة! وقفت وقلت مازحا كعادتي، يبدوا أن هذه العادة لن تفارقني، فأنا أجعل الأشياء تبدوا بسيطة بالرغم من جديتها الكبيرة:

ـ إنه السحر يا صغيرتي.

ـ أنا لا أمزح يا زياد.

ـ حبيبتي، أرجوك لا تفسدي هذه اللحظة و سأخبرك كل شيء في الوقت المناسب.

ـ حسنا لكن لن أنسى وسأسألك مرة أخرى.

ـ موافق.

بينما أنا واقف أمامها ، سافرت لبرهة في خيالي.. رأيتني شاعرا مشهورا يقف شامخا في قاعة مليئة بالمعجبين.. ينتظرون بلهفة سماع أبياتي التي تدوي القلوب.. رأيتها تجلس في الصف الأمامي قبالتي مباشرة، كنت أنظر إليها وكأنني أوجه لها الكلام وحدها:

جئت إليك وفي راحتي جراح السنين..

وأحزان عمر.. وطيف اغتراب..

وبين الليالي.. بقايا أماني، تلاشت كما يتلاشى السراب..

شعيرات رأسي، شعيرات رأسي تصارعن يوما..

بياض الشيوخ وسحر الشباب..

وجئت إليك وفرحة قلبي تفوق السحاب..

قطعت علي نشوتي حين قالت:

ـ أيها الغريب! إلى أين سافرت وتركتني أجلس وحيدة؟

عدت وجلست بجانبها، كانت تحدثني عن نفسها وعن هواياتها وعن أبويها، وعن بعض المواقف المضحكة التي حدث معها..

كنت سعيدا وأنا أسمع حديثها، أراقب شفتيها وقد احمرتا من كثرة الحديث، كنت أراقبها والضوء يسقط على خدها حتى توقفت عن الكلام، أسندت رأسي إلى كتفها، قبلتها في خدها الأيسر ثم شفتيها.. كانت خجلى في البداية، لكنها تشجعت فيما بعد، أمسكت بشفتي التحتية وعضتها بقسوة، وفعلت نفس الشيء، تألمت قليلا لكنها استمرت في تقبيلي بعنف، كانت شفتاها ناعمتان في فمي، لم أشبع منها لكني توقفت عن تقبيلها.. كان الوقت قد تأخر ويجب أن أرافقها إلى بيتها..

ايلين مسيحية ولبنانية الأصل، كان أبواها قد قدما إلى تركيا بعد أن فقدا ابنها البكر في الحرب الأهلية في فترة السبعينيات على ما أعتقد، أنا سعيد جدا لأن أباها قد فرا من الحرب بالرغم من أنه فعل جبان، لكن كلنا نعلم ماذا يحدث حين تعم الفوضى البلاد.. و ها أنا الآن سأقطف ثمار هروبه.. سأسرق منه ابنته بعدما سرق الحرب ابنه فيما مضى..

شعر ايلين الأسود القصير المفروش في حدائق القلب، يمنحني دائما رخصة التجول في حديقة أنوثتها، والذي أتمنى ألا يكون أحدهم قد دخلها من قبل، فمجرد الغوص في عينيها يجلب لعلامات المرور في شراييني حالة من الهدوء والطمأنينة، عندها يزيد تفاؤلي..

لقائنا الثاني كان بمثابة الضربة القاضية لتعاستي التي وبالرغم من تحسن نفسيتي مازالت تطاردني.. كيف لا و أنا لا أزال أفكر في بعض الأشخاص والأحداث، قد يكون أبي فقد صوابه حين اكتشف أن أمواله سرقت، وقد تفقد أمي صوابها لأن أبي فقد صوابه، ولأني رحلت دون سابق إنذار.. كيف هي حياتهم الآن؟ لكن مجرد التفكير في _ايلين_ بوجهها الملائكي الدافئ الذي يقشر تفاح سعادتي، مجرد التفكير فيها أحس وكأنني أول رجل يبلله مطر الحب في هذا العالم، هكذا أحس وهكذا هي ايلين ..

في لقائنا الثالث.. كانت أكثر جمالا من قبل ، كانت ترتدي جاكيطا أسود فوق تنورة قصيرة تظهر ساقيها الناعمتين، قلادة تحمل صليبا رماديا تسترخي فوق عنقها الدافئ ، حقيبة صغيرة في يدها.. كل شيء فيها كان مثاليا يومها..

أخذتني من يدي و لفت بي اسطنبول شارعا شارعا، استأجرنا قاربا صغيرا لنتنقل به، اكتشفت حينها الفرق بين التجول برا وبين البحر،

كان الجو باردا يومها، فصل الخريف على الأبواب على ما أظن، فقد فقدت الإحساس بالفصول منذ زمن طويل.. أعطيتها معطفي وحاولت إخفاء ارتعاشي و ارتجافي من البرد، لكنها كشفت أمري وانتقلنا إلى إحدى المقاهي الدافئة..

أحيانا أسرح في تفكيري وحيدا بالرغم من أنها تملأ تفكيري كله، نعم! هذه الفتاة البريئة التي تجلس بجانبي، تحاول تدفئة يداي بيديها الباردتين هي نصفي الثاني، النصف الذي ضننت أنني لن أجده أبدا.. ارتبطت بالعديد من بنات الرباط لكن في كل مرة أخجل من أن أسمع نفسي تقول أن إحداهن هي نصفي الثاني، لكن ليس هذه المرة.. هذه المرة سأقولها بصوت عالي.. نعم ايلين حبيبتي هي نصفي الثاني.. هذه هي الحقيقة، هذا شعوري وشعورها، وشعور جوارحنا.. في نهاية ذلك اليوم، أخبرتها أنني مضطر لأغيب عنها لبعض الوقت.. لم تعترض ولم تشك في نيتي وهذا ما جعلني أعشقها أكثر ، كان لزاما علي أن أجد عملا قبل أن تسوء أحوالي وتضيع من يدي هذه الحمامة الجميلة..

رغبتي الجامحة في التشبث بها دفعتني إلى الاستيقاظ باكرا كل يوم والخروج للبحث عن عمل ، لم أكن أرغب في عمل معين ، لكن عمل يسد حاجتي حتى أتمكن من الاستقرار نهائيا في تركيا.. وفعلا

بعد أسبوع من البحث.. وجدت عملا في مكتبة كبيرة كان قد أخبرني العجوز أن أمر عليها ، مكتبة هائلة بداخلها مقهى للانترنت وقاعات هادئة للمطالعة، حقا أبهرني المكان ووعدت صاحب المكتبة أن لا أخذله.. عمر كان هو اسمه، أب لطفلتين.. عموما اتفقنا وكان الراتب مشجعا بالنسبة لي.. اتصلت بايلين لأخبرها عن عملي الجديد وطلبت لقائها.

أخذتها إلى السينما.. كان ذلك يوم الأحد، تذكرت حين كنت أقصد السينما في الرباط وحيدا فقط كي أنال قسطا من النوم بعيدا عن البيت.. السينما هنا ليست كالسينما هناك، فهناك لا أحد يشاهد الأفلام المعروضة، فالكل مشغول بتبادل القبل وحتى المضاجعة إن سمحت الفرصة، أصبح من المخجل أن ترافق عائلتك لمشاهدة فيلم ما، بالرغم من أن الأفلام التي تعرض غالبا فالسينما لا تصلح للمشاهدات العائلية خصوصا في البلدان العربية.. فلا أحد يجرأ أن يشاهد فيلما رومانسيا بحضور فرد من أفراد عائلته الكبار.. أتذكر أنه في إحدى المرات، نشب عراك بالأيدي بين رجل كان برفقة عائلته مع شاب كان يقبل رفيقته بالقرب منهم.. شعر الرجل بالضيق والحرج من تصرف الشاب المتهور، فطلب منه تغيير مكانه، لكن الشاب كان عنيدا ورفض ، مما جعل الرجل يضربه

وغاب عن الوعي ، جاء الحراس لإخراجهم من القاعة، مما دفعني لأتدخل، وأخبرت الحراس أن الشاب هو الذي افتعل الشجار رفقة صديقته العفيفة، كانت كلماتي بمثابة لكمات بالنسبة لها مما جعلها تخرج باكية.. قام الحراس بإخراج الشاب كذلك و اعتذروا من الرجل وعائلته.

خرجنا بعد الفيلم نتمشى كعادتنا ، يومها أخبرتها عن نفسي.. أخبرتها عن أهلي وعن وطني، أخبرتها عن طفلتي ... كانت صامتة تتحسر على ما تسمعه.. لم تستطع أن تقاوم أكثر فتوقفت، اغرورقت عيناها بالدموع وارتمت في حضني.. أخبرتها ألا تحزن وأن كل ذلك مجرد ماض تعيس ومر، لقد تغيرت الآن وليس هناك ما يستحق البكاء من أجله، لكنها ظلت تبكي وتحضنني.

طريقة احتضانها لي ونظراتها البريئة جعلتني أشعر بغصة في حلقي، خصوصا وأن شريط كل تلك السنوات التعيسة قد مر أمام خاطري في ثانية، الحق أنني بكيت بدون دموع يومها، فاحتضنتها أكثر وبقوة.

في الوقت الذي ضننت فيه أن الوضع تحسن أخيرا وأن الأمور تسير بسلاسة كما أريد، فوجئت ذات صباح بوفاة العجوز مسعود. وفاة طبيعية لكنها كانت قاسية بالنسبة لي، كنت أحترمه كثيرا، ليس

فقط لكوني أسكن بجواره وفي بيته، ولم يبخل علي قط بشيء، ولكن لأنه يحمل كل معاني الإنسانية..

أخذ الحزن يتقطر من قلبي حين رافقت الموكب لدفنه، ثلة من الجيران، أغلبهم كبار في السن، يغلب عليهم الصمت الثقيل، الكل كتم بكائه سوى عجوز لم تستطع و تركتها تسيل بهدوء من خديها الصغيرين، هذه أول مرة في حياتي أحضر فيها جنازة أحدهم.. كنا نسير ببطء مرددين: لا اله إلا الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

الحقيقة أنني لم أجرؤ قط على سؤاله عن عائلته أو عن أي شيء يخصه، احترمت خصوصيته كثيرا، حاولت ما أمكن أن أؤنسه كلما سمح لي الوقت.. أعلم أنه منذ هذه اللحظة سأتذكره في كل مرة أضع الشاي بين شفتاي.. أتذكر جيدا حين قال لي يوما:

_ أنت تائه مثلي يا بني، لا يمكنك فهم حياتك، لا يمكنك جمع القطع معا، تماما مثلي.. أنت مجرد حاج من المجهول.. غريب.. مجرد أشلاء وقطع لرجل لا تعرفه حتى.

كان العجوز يعلم تماما أنه سيغادر هذا العالم قريبا، وكان يدرك أن رحيله لن يكون له أثر كبير.. سيموت مثل من ماتوا من قبل، سيتذكره القليل، وسيذكره الآخرون كلما مر من حديثهم صدفة، سيموت مثل كل البشر.. عجوز في السبعين..

كانت تصرفاته في الأيام الأخيرة من حياته مختلفة على غير العادة، أذكر أنه قبل ثلاثة أيام من وفاته، كنا نداعب الشيشة كعادتنا.. وفي لحظة صامتة أصيب بهستيرية من البكاء، تركته يبكي.. أعلم أن ضميره يؤنبه لحدث ما وقع معه في ماضيه، وقد لا يكون هو المخطئ، لكن أحيانا و بالرغم من أننا لسنا المخطئين إلا أننا نحس بتأنيب الضمير لأننا لم نتصرف بطريقة أخرى غير التي تصرفنا بها.. وفاة العجوز أجبرتني على تغيير مقر سكناي تفاديا لأي احتكاك مع السلطات المحلية، خصوصا و أنني لم أستقر بعد بشكل نهائي.. وجدت سكنا جديدا في مكان أكثر أناقة من بيت العجوز رحمه الله، غرفتين وصالة متوسطة، مطبخ صغير وحمام صغير كذلك.. لكن هذا البيت الجديد دفعني للبحث عن عمل ثان يغطي مصاريفه.. وكان لابد أن أستغل سفر ايلين إلى أنقرة وانشغالها بامتحاناتها لأعمل أكثر وبجد، وهذا ما حدث، كنت أعمل بالمكتبة نهارا ثم بإحدى الفنادق ليلا.

لم يكن الأمر متعبا كما كنت أتصور بل العكس، العمل في إحدى مطابخ فندق فخم هنا مكنني من التعرف على عادات الأتراك أكثر، أناس لطفاء حقا، لكني كنت أخاف بمخالطتهم أن أعود لشرب الخمر مجددا، خصوصا و أن الكل هنا يشرب، لا بل وهناك

من يعتبره حلالا و أن الخمر الحرام هو النبيذ الأحمر فقط، لم أستغرب من هذا الأمر فأمور كثيرة أصبحت عادية في العالم، كانت بالأمس القريب من أكبر المحرمات.

اتصلت بايلين و أخبرتها بوفاة العجوز.. انزعجت كثيرا بالرغم من أنها لم تقابله إلا مرة واحدة، كنا التقينا به صدفة في الشارع الكبير ، كان سعيدا برؤيتنا، أطال النظر إلينا مطولا، كأننا ذكرناه بشخص ما، ربما زوجته أيام شبابهم.. أذكر يومها أنها سألتني عن حياتي العاطفية السابقة، فهززت كتفي في لا مبالاة مشيرا لعدم وجود ما يستحق الذكر، فحياتي البشعة هناك لم تكن لتسمح بوقوعي في حب إحداهن.. لم أسألها بدوري عن علاقاتها، لا أريد أن أعرف بأن أحدهم فيما مضى قد قبل هاتين الشفتين أو لمس خصرها.. لم أستبعد الأمر لكني لا أريد أن أعرف وغيرت الموضوع حينها..

أسبوعين من الغياب عادت بعدها ايلين إلى اسطنبول.. وعادت معها البسمة إلى وجهي و كنت متشوقا أكثر من العادة، لدى استقبلتها في محطة القطار في السابعة صباحا، رافقتها إلى البيت وأخبرتها في الطريق أنني أرغب في مقابلة أبويها الأسبوع القادم.. كانت مترددة خشية ألا أكون قد تسرعت في قراري، لكنها كانت سعيدة في الوقت نفسه.. عدت إلى العمل وتركتها ترتاح من عناء

أسبوعين كاملين من الدراسة والامتحانات.. لا أخفي أني متوتر جدا و أنا أفكر في لقاء والديها خصوصا وأنني لا أعرف ماذا أقول لهم، لكن حبها كان دافعا قويا لأفعل أي شيء، و أن أواجه أي كان، و للأسف سأقابله وحيدا.. كنت أتمنى أن يكون العجوز برفقتي.

استقبلني السيد جورج والد ايلين بحفاوة خصوصا وأنها أخبرته بقصتي كاملة، أو بالأحرى ما أخبرتها فأنا بطبعي لا أخرج كل أوراقي.. كنت في أبهى حلة، لا أدري حقا إن كانت أبهى حلة أم لا، المهم كنت مختلفا.. بدلة سوداء فوق قميص أبيض بدون ربطة عنق طبعا، سروال من الجينز يميل إلى الأسود كذلك، حذاء أسود، حتى أن السيد جورج قال لي مازحا: هل جئت لتعزي أحدا يا بني؟ لكن السيدة نوال زوجته وبخته وقالت أن الأسود يليق بي..

جلسنا في مجلس مرتب بشكل لا يصدق، كل شيء في مكانه.. يبدوا أن السيدة نوال تهتم بأدق التفاصيل.. السيدة الأنيقة ذات الوجه الصافي والبشوش، ما إن تحدثها حتى تقع في شباك حنانها الدافئ.. أما السيد جورج فيبدوا كأنه لا يهتم بهندامه مما أزعج السيدة نوال، وجه ممتلئ مستدير يبعث على شخصية قوية وصارمة لكن ما إن تتعرف عليه تكتشف العكس، فهو مرح جدا.. تبادلنا أطراف الحديث وحكى لي عن حياته في لبنان قبل قدومه إلى تركيا، كنت على دراية بتلك الحرب الأهلية البشعة التي اندلعت هناك في فترة السبعينيات على ما أعتقد.. دخلنا في نقاشات مثيرة حول تلك الفترة، صمت قليلا ثم قال:

_ كانت حربا بشعة حقا..

أجبت بحسرة:

_ الأبشع أن نفس الشيء يحدث الآن في الشرق الأوسط.. سوريا، العراق، اليمن... الميليشيات تدمر كل شيء، أتت على الأخضر واليابس، سفكت الدماء البريئة ومازالت تسفك، اغتصبت النساء والأطفال، العالم قد جن و يسير نحو الهلاك..

تأثر السيد جورج كثيرا، مسح دمعته بسرعة وقال مازحا:

_ لم تخبرني عن سبب مجيئك بعد؟

_ أتيت لأسرق ابنتك أمام أنظارك.

_ أنت سارق إذن ؟

_ نعم، أنا سارق مثلك تماما.

ضحك ونادى على ايلين والسيدة نوال.. تبدوا خجولة شيئا ما، احمرت وجنتها وهي تقدم الشاي لأبيها أولا.. ثم جلست بقربي ولكزتني لكي أبدأ الحديث فقلت:

_ لا شك أنكم تعلمون سبب قدومي إلى بيتكم اليوم، جئت لأسرق فلذة كبدكم ايلين أعلم أن الأمر صعب عليكم خصوصا وأنها ابنتكم الوحيدة لكني لم أعد أقوى على الانتظار.. ثم لأنكم لا تريدونها طبعا أن تبقى هذه القبيحة عانسا.

ضحك الجميع وقالت السيدة نوال:

ـ بما أنك تعلم كل شيء الآن، وتعلم أنك تتعرض لعملية احتيال من طرفنا، فلم يتبقى لي إلا أن أبارك لكما..

ثم أردف السيد جورج مازحا:

ـ و أنا كذلك لا مانع لدي..

لويت عنقي نحو ايلين فالتقت نظراتنا.. توقف الزمن لبرهة، كدت أقبلها أمام والديها..

استأذنت لأنصرف بعد اتفاق مبدئي معهم ، وعدت السيد جورج أن نتحدث أكثر مرة أخرى عن تاريخ لبنان.. رافقتني ـايلينـ إلى الباب، عناق دافئ على العتبة، وقبلة في جبهتها وشفتيها ثم عدت إلى العمل.

في الطريق كنت أتوقف بين الفينة والأخرى ، لا أصدق أنني فعلتها، لا أصدق أنني سأتزوج قريبا وبهذه البساطة، سأتزوج أنا الذي لم يغريني الزواج يوما، فمؤسسة الزواج وفكرة العائلة لم تغريني قط، لم أشعر يوما أنني من هذا النوع من الرجال الذين يعتبرون الزواج محطة الاستقرار التي لابد أن نصل إليها في نهاية المطاف، لكني اليوم كنت سعيدا جدا في أعماقي ، لكني لم أستطع إخراج تلك الفرحة إلى الخارج خوفا من عين قد تتربص بي..

ها أنا أقترب من السعادة، بلا ضجة، مزيحا كل الأشواك التي أمامي.. عدت إلى سابق عهدي، لطيفا أقاسم الآخرين الضحك والصراخ والهمسات، غدت إسطنبول أجمل.. اختفى شبح التشاؤم والنحس، قررت التنزه وحيدا في يوم الأحد، حاميا جسدي بملابس أنيقة، تذكرت معطفي الرث، اشتقت إليه، هو الشاهد الوحيد على أفعالي هناك، كانت اسطنبول تمتد أمام ناظري.. أشعر أنني حر أخيرا، كل شيء يبدوا طبيعيا من الخارج والداخل، حالتي المادية مستقرة، بل وجيدة، لدي حبيبة رقيقة وجميلة أستكين إليها كلما أحسست بالوحدة، جلست في حديقة جميلة أراقب الأطفال في لهوهم، تخيلت صغيرتي جاسمين تلعب هناك أمامي.. ترامى إلى مسامعي صوت دافئ وجميل، صوت المؤذن.. ذكرني بالعجوز مسعود رحمه الله، كان يوقظني في الصباح الباكر لأرافقه إلى المسجد.. كان يصلي بجانبي وبالكاد يستطيع تحريك ساقيه، لكنه يقاوم في الصلاة، لكالما تحسرت على السنوات التي أضعتها بعيدا عن المساجد وعن الله، للمسجد طعم خاص، ففيه ترى أناسا أشباحا لا تراهم إلا ناذرا لكنهم حتما معروفون في السماء، ترى أناسا آخرين، خائري القوى من كثرة العمل المضني لكن لا تفوتهم الصلاة في المسجد أبدا.. ترى أناسا بسطاء العقول ومعهم يحلو

الكلام بعد الصلاة، والجميل في الأتراك أن أغلبهم يجيد الإنجليزية وإلا لوجدت صعوبات في التواصل معهم.

قمت وصليت مع الجماعة وعدت إلى البيت.. بيتي أصبح كما كنت أحلم دائما، غرفة نوم كبيرة تحوي سريرا كبيرا، وخزانة كبيرة كذلك، رفوف من الكتب والروايات التي كنت أشتريها بثمن قليل في سوق صغير في النواحي، صالة صغيرة تحوي تلفازا من الحجم الكبير، وفي الركن مكتب أنيق وكرسي مريح أحاول فيه أحيانا أن أكتب، فحلم الكتابة مازال يداعبني من حين لآخر..

أعتقد أن ايلين ستحب المكان هنا، سنكتفي بهذا البيت إلى حين نرزق بأطفال و أبحث لهم عن بيت أوسع.. بالرغم من أنني لا أنوي أن أرزق بأكثر من طفلين. ولا أظن أنها قد ترغب في أكثر من هذا.. ولا أظن أننا سنجد صعوبة في تربيتهم باعتبارها مسيحية وأنا مسلم.. لأني سأقنعها بالإسلام هي الأولى قبل قدوم الأطفال..

وهذا شيء أحاول تفاديه في الوقت الراهن حتى يأتي الوقت المناسب.

دعوت السيد جورج بعد أيام من زيارتي لهم إلى مشاركتي كأسا من الشاي في إحدى المقاهي الكثيرة هنا.. رافقته إلى المقهى الذي التقيت فيه بابنته أول مرة، أخبرته قصة لقائنا حينها وقال أنه سعيد لأني أخرجتها من عزلتها الدائمة.. يبدوا أنني محظوظ وتعرفت عليها في الوقت المناسب.. أنا كذلك سعيد لأنها أخرجتني من تعاستي، عدنا وتحدثنا عن بعض الأمور السياسية، القديمة والحديثة، سألته عن داعش وأجاب:

_ داعش مجرد ثلة من المجانين، يصفون إخوانهم المسلمين بالكفار واليهود ويجعلونها ذريعة لاستباحة قتلهم.. مجانين ومتوحشون، أنا مسيحي ولا أعرف إن كان ما يفعلونه حقا يتعلق بالإسلام أم لا، لكن لا أعتقد ذلك ، فأنا أعرف أناس كثر مسلمون، أناس مؤدبون وبسطاء و يستحيل أن يقوموا بمثل تلك الأمور البشعة..

كان السيد جورج يتحدث عن داعش بشراهة معربا في الوقت نفسه عن خيبة أمله في دول التحالف التي لم تستطع أن توقف أولئك المتوحشون عند حدهم ، لم أكن أعلم أنه يدخن إلا حين أخرج علبة سجائر من جيب معطفه، قدم لي واحدة، كنت حائرا، إن كان قد تعمد هذا، رحت أتأمل السيجارة.. فقال ضاحكا:

_ لا تخف لن أخبرها، تناول سيجارة مع صهرك.. أنا كذلك مثلك

أدخن خفية عنهن، لقد لمحت الولاعة في جيب سروالك ذلك اليوم.

ـ إذن لم يعد هناك ما أخفيه.. هات السيجارة.

أشعلتها وأخذت أنفث دخانها جهة السيد جورج الذي سألني عن رأيي أنا كذلك في داعش كشخص مسلم يفقه في الإسلام أكثر منه.. لم أفكر كثيرا وأجبت:

ـ في الحقيقة وفي ظل هذا الانحلال الأخلاقي الذي نعيشه في السنوات الماضية، كنت مرحبا بفكرة قيام دولة إسلامية تحترم الدين الإسلامي وتطبقه بحذافيره.. لكن بعد مدة اتضح لي أن المسألة تتعلق بالمال والسلطة ليس إلا، داعش تسيطر على العراق والنواحي من أجل النفط والمال، وكما نقول بأن مصائب قوم عند قوم فوائد فإن ظهور داعش كان بمثابة فرصة للدول الكبرى لاستنزاف ما تبقى من ثروات الدول المتضررة كسوريا والعراق وليبيا.. في حين تتفرج الدول العربية كعادتها كما فعلت في القضية الفلسطينية، مدعية أن الأمر لا يعنيها، لا بل وتساعد الدول الأجنبية في أعمالها الشريرة بحجة القضاء على الإرهاب.. عن أي إرهاب يتحدثون؟ لكن في النهاية كل شيء يتعلق بالمال والسلطة، قانون الغاب يحكم. والحق أن البسطاء مثلنا لن يفهموا أبدا ماذا يحدث هناك، من يقاتل من ومن أجل من. تلك لعبة أكبر منا وستظل كبيرة لأننا

لا نبالي بها أصلا.. لهذا أحاول ما أمكن أن أتفادى التفكير في مثل تلك الأمور المركبة، بالرغم من أن ضميري يؤنبني من وقت لأخر، لا تستغرب فالعرب مازالوا يملكون ضميرا حيا لكن الضعفاء منهم فقط أما أصحاب السلطة والقوة فقد باعوا ضميرهم وهويتهم منذ الأزل..

جورج بدا مندهشا من طريقة كلامي الشرهة حتى أنني أخرجت علبة السجائر من معطفي أنا كذلك، أخذت أدخن الواحدة تلو الأخرى متناسيا أن الذي يجلس أمامي هو صهري المستقبلي..

لكني منزعج حقا مما يحدث في العالم العربي.. نحن شعوب لا تستحق كل هذا العنف.

عموما كان لقاءا مشوقا ومريحا، وانتهى بأن حددنا تاريخا قريبا لحفلة الخطوبة الرسمية..

لم أكن أتوقع أن تكون حياتي بهذه السلاسة وهذه العذوبة، وأنا الذي كنت أدور في نفس المكان، أنا الذي لم أستطع منع نفسي من الدوران كأن قوة خفية كانت تتحكم في وتحركني في الاتجاه المعاكس.. أنا الذي كنت أستشيط غيضا وجنونا حين أرى الآخرين لا يشعرون بمثل ما أشعر به، بل العكس، مستقرون ومتصالحون مع أنفسهم، يذهبون إلى أعمالهم بشكل يومي، يملكون عملا ومنزلا.. يذهبون إلى المقاهي والملاهي وقتما شاءوا، إلا أنا.. أنا الذي كنت أكتفي بتمني الموت لعلها تحد من صراعي المستمر، أنا الذي كنت أتساءل كيف أشق طريقي وسط هذه التناقضات التي يسمونها الحياة اليومية الطبيعية ، بالرغم من أنني كنت اعلم يقينا أنهم مجرد قطيع يساق إلى تعاسته، قطيع لا يعير أي انتباه لما يفعله، يتسابقون ويتنافسون، يكرهون ويحقدون على بعضهم البعض.. لم أكن لأقبل أن أكون مثلهم، وها أنا الآن أحاول جاهدا ألا أكون مثلهم وألا أتشبه بهم، لكن في الوقت نفسه أحاول أن أضع حدا لمعاناتي.. ها أنا الآن أشق طريقي من أجل حياة طبيعية هادئة، حياة جديدة، عائلة جديدة وطموحات جديدة بعيدا عن الرباط وشوارعها وحاناتها..

وعلى ذكر الحانات تذكرت إحدى المرات التي كنت فيها مخمورا في

البار، كنت متعبا يومها و بسطت ذراعي على الطاولة، كل ما كنت أريده هو أن أنام بعد ارتشاف عشر زجاجات من البيرة الفاسية وكأسي فودكا.. توسدت ذراعي وأغمضت جفناي، فجأة وجدت نفسي في سرير كبير يغطيني غطاء أبيض و ومن حولي ضجيج لا أعرف مصدره.. هل مت يا ترى؟ أصوات كالبكاء ممزوجة بالغناء كانت تصل إلى مسامعي، أيادي كانت تربت على كتفي وتجرني بقوة ، ظننتها ملائكة يجرونني للحساب، ماذا يحدث؟ هل يريدون إرجاعي للحياة؟ كنت أصرخ، أتركوني هنا، لا أريد العودة إلى عالمكم الكريه، اتركوني هنا.. كانوا يجيبون:

_ انصرف إلى منزلك ومت كما تشاء..

رفعت رأسي الثقيل وفتحت عيناي بصعوبة، أشباح تقف أمامي، وجوه آدمية غاضبة، صرخت في وجههم:

_ أتريدون سرقتي؟ سأريكم يا حثالة..

حاولت نزع معطفي الذي بات ثقيلا فجأة، سأقتلكم يا حيوانات، سترون.. لم أكمل كلامي حتى تلقيت صفعة قوية وسقطت أرضا.. فقال أحدهم:

_ يا صديقي نحن لا نريد أن نسرقك، نريد منك فقط أن تغادر، الوقت تأخر ويجب أن نغلق البار..

نظرت من حولي لأجدني مازلت في البار الملعون وحيدا، الكل كان قد غادر، أخرجني أحدهم إلى الخارج لتصفعني نسمة برد أيقظتني من غيبوبتي وعدت إلى البيت..

ضحكت كثيرا وأنا أتذكر تلك الأيام.. لكن الوقت قد حان لأضع كل شيء في خزانة جديدة وأغلقها بإحكام وأرميها في نهر النسيان..

لن يكون النسيان سهلا طبعا، فبعض الأمور يستعصى نسيانها بسهولة.. لكني سأنسى كما نسيت طفولتي، سأنسى كما نسيت أحلامي التي تبخرت في جو من اللامبالاة والإهمال اللذان كانا سببا اختياري للهروب بدل العيش في سلسلة من التناقضات التي لا حد ولا حل لها..

استسلمت للنوم الذي رماني في حلم غريب وجميل في الوقت نفسه، حلمت أني التقيت بإسماعيل، كنا نتمشى صامتين، اقترح أن نشرب القهوة في مقهانا المعتاد، كان الحلم حقيقيا بشكل مدهش، رأيت الرباط مرة أخرى بأدق تفاصيلها، شوارعها، المقهى، النادل، نفس الكراسي.. كنت هناك حقا.

جلسنا نرتشف القهوة المرة، لم نتحدث عن سبب افتراقنا بتلك الطريقة ودون سبب مقنع.. كان بالإمكان أن نستمر في علاقتنا

رغم اختلاف وجهاتنا.. كنت أنظر إليه بتعجب، لا عتاب في كلماته ولا حتى نظراته، حاولت أن أبرر ما حصل، فقاطعني: لا تقل شيئا، ما حدث قد حدث، انتهينا من تلك الفترة، فلننظر إلى ما سيحدث.. كانا إسماعيل مختلفا لوهلة و لكننا في لحظة كنا كما كنا من قبل، نستمر في المناوشات والكلام الذي يسوده طابع الجد والسخرية طوال ساعات، ثم في الأخير نفترق وكل يذهب إلى مصدر تعاسته دون أن نسلم على بعضنا البعض حتى، ربما لأننا كنا متأكدين أننا سنلتقي في اليوم المقبل لا محالة.. أحسست فعلا أنني كنت ذاهبا إلى البيت بعد توديع إسماعيل فقفزت مذعورا من مكاني..

السادسة صباحا، استيقظت قبل المنبه، توضأت وصليت، أعددت قهوتي السوداء التي أيقظت كل عضلة متعبة في جسدي الذي استرجع نشاطه، جلست أشاهد الأخبار الصباحية، الأوضاع ازدادت سوءا في الشرق الأوسط خصوصا في سوريا الجريحة.. منظر اللاجئين وهم مشردون أغضبني فأطفئت التلفاز..

ذهبت إلى العمل مشيا على الإقدام، اسطنبول ساحرة في الصباح الباكر، كل شيء فيها يغري في هذا الوقت.. استوقفني منظر رجل مسن مقوس ونحيل يكنس الشارع المقابل لمقر سكناي، يجمع

الأزبال ويضعها في الحاوية فيغدوا المكان نظيفا، والغريب أن هذا العجوز لا يتقاضى أجرا عما يقوم به ولا أحد يسخره للقيام بهذا، لكنه يقوم بهذا العمل النبيل بإخلاص شديد أحسده عليه..

سلمت عليه وأخبرته أنني معجب بإنسانيته، أخبرته أن الأرض التي أتيت منها ينقصها أناس أمثاله لتصير أفضل، الأرض التي تنام على بولها ولا أحد يكترث لما حل بها.. استغرب العجوز وقال: وهل هناك من يرضى لنفسه أن يعيش وسط الأزبال؟ ابتسمت في وجهه البشوش وقلت: أنت إنسان رائع ومكانك ليس في هذا العالم المجنون.. عدت أتمشى وابتسامة ساخرة تعلو وجهي.. تذكرت بعض الحاويات في الرباط، حاوية الأزبال هناك مثيرة للشفقة، تجد المسكينة منقلبة على جنبها ومحتوياتها مشتتة على الأرض، روائحها تخنق النفوس من بعيد، يعبث بمحتوياتها القطط والكلاب والأطفال حتى.. العجوز قال مستغربا وهل هناك من يرضى لنفسه أن يعيش وسط الأزبال!

أنت لا تعلم أيها العجوز البريء أن هناك من يأكل من تلك الأزبال التي تتحدث عنها، تلك الحاويات المقززة أصبحت مصدر رزق بالنسبة للكثيرين هناك، فحتى الأزبال تباع في بلادي. أنت لا تعلم يا جدي أن في بلادي، تحنط الأحاسيس، تباع الأخلاق

جاهزة، معلبة في قوالب سياسية، سريعة الانكسار وسهلة الاستعمال، لا يهم سعال ليل أو ركام موت في زمن منحط..
مدينتي لا تخاف كما يخاف أهلها، فهي ترقص وقتما شاءت، وتقتل إن اقتضى الأمر، تضيع ساكنيها وتحتفي بالغريب، يبقى فيها الغريب هنيئا ويبقي الساكن غريبا، غريب الأهل والقيم والأخلاق..
لا أنا ولا أنت تعلم ماذا يحدث لهذا العالم المجنون.

لفت انتباهي كتاب بين الرفوف بينما كنت أرتبها في مكانها..
كتاب انجليزي بعنوان : الكلمات يمكن أن تغير دماغك . جلست أتصفحه بتمعن، كتاب مثير حقا، يتحدث عن إمكانية التغيير بشكل جذري خصوصا بتغيير ماضينا وذلك بتغيير بعض الأشياء فينا، كالكلمات التي نستعملها أغلب الوقت.. أعجبتني فكرة تغيير الماضي فسرحت أفكر في نفسي وفي ماضي، ها أنا! وهل أستطيع حقا تغيير ماضي التعيس؟ كان لابد أن أحاول فقد تنجح الفكرة..
في المساء، حاولت الإجابة على بعض التساؤلات التي تنخر دماغي لسنوات عدة.. جلست قبالة المرآة وسألت نفسي: من أنا؟ لكن لا جواب، بقيت صامتا وتركت انعكاسي في المرآة يجيب:
_ أنت زياد.. لست بأمير ولا ملك، أنت زياد فقط، لا أقل ولا أكثر.. زياد بكل بساطة، إنسان بسيط وحالم.. لكنك لم تتوقع يوما أن حياتك ستؤول إلى ما آلت إليه بسبب أقربائك.. آمنت بالتغيير ولو على حساب مبادئك وأخلاقك، التغيير الصادق الذي تشعر معه أنك تحيى من جديد وأنك حر.. لذلك حين قررت التغيير حقا، عثرت على مرادك ولم تلتفت إلى الوراء، تحديت الصعاب بعدما تحملت الإهانات التي طالتك طوال حياتك..
أهملت ووصفت بالفاشل ثم كدت ترمى في الشارع مرات عدة.. لم

تجد في أمك تلك الأم الحنونة التي يسمونها منبع الحنان، تلك الأم التي تقدر وضعك وتساعدك على تحمل الواقع المرير ولو بابتسامة، لم تجد أبا يربت على كتفك ويقول لك لا تخف يا بني فأنا بجانبك.. وها أنت الآن تصنع مصيرك بنفسك.. أنا فخور بك، صدقني فرؤيتك تصنع مصيرك وحيدا وتبني عزيمتك خطوة خطوة، خطوات واثقة أكثر فأكثر جعلني سعيدا جدا.. أعتقد أنه يجب أن نحتفل لما حققته حتى الآن.. ألا تظن ذلك؟

راقت لي فكرة الاحتفال فقفزت من مكاني وكأن أحدهم أمرني حقا بالقيام، خرجت واشتريت قارورتين من البيرة وعلبة سجائر، عدت وجلست أمام المرآة لأحتفل مع انعكاسي بنصري، نصري على نفسي وعلى واقعي، ارتشف الجعة وأنظر إلى وجهي البشوش في المرآة، أحدثني بصوت مرتفع.. قريبا ستصبح عريسا، قريبا سيشع هذا البيت بنور ملاكك ايلين قريبا ستكتمل فرحتك ويكتمل انتصارك.. رحت أقرا ذلك الكتاب المثير وأدخن حتى وقت متأخر، لا بأس ببعض السهر فغدا يوم عطلة، سأنام ملئ الجفون حتى وقت متأخر من الصباح، حان دوري لأنام هنيء البال، أينكم يا أصحاب الفيلات الفخمة، انظروا إلي أنام مثلكم الآن، في سريري الدافئ وغطائي الغالي، أنظروا إلى ملابس نومي التي تشبه

ملابسكم، اسمعوا ضحكاتي العالية، انظروا إلى كلبي الصغير الجميل، أنا كذلك أملك كلبا الآن، لكنه ليس ككلابك المتوحشة الصاخبة، فكلبي الجميل هادئ.. أنظروا وأمعنوا النظر..

استيقظت في الصباح.. ارتديت ملابسي الرياضية وخرجت أتمشى، بلغت الحارة التي تسكنها ايلين من غير أن أحس أو أسرع الخطى، وقفت على عتبة الباب وضغطت على الجرس دون تفكير، ظهرت الجميلة خلف الباب، ألقت اتجاهي بنظرة سريعة وكأنها تفاجأت ثم توارت خلف الباب وهي تكلمني:

ـ زياد.. اذهب من هنا، غدا يوم الخطوبة ولا يفترض بك أن تراني!

لطالما سمعت هذه الجملة في مسلسلاتهم وسخرت منها، وها هي الآن موجهة لي، يبدوا أن الناس هنا مقتنعة بمثل هذه التكهنات، يعتبرونها نذير شؤم أو شيء من هذا القبيل.. عموما لم أشأ إزعاجها فقلت مازحا:

ـ حسنا.. أنا ذاهب، لم يكن علي أن أشتاق إليك..

ولأنها مرهفة الإحساس، أسرعت بالخروج لتجدني مازلت واقفا مكاني، فارتمت في حضني.. كانت لا تزال شبه نائمة، بدت أمامي حافية القدمين وبلباس خفيف، سروال قصير وقميص بدون أكمام

عليه خطوط عريضة، كان وجهها صافيا خاليا من أية مساحيق.. جمال طبيعي محض.. أنا محظوظ ولطالما كنت محظوظا فيما يخص نوع الحريم الذي أرتبط به..

تركتها وعدت أتمشى، وأحيانا أجري حتى تعبت ، جلست في حديقة أمتع عيناي بجمال اسطنبول، اسطنبول مدينة هادئة وصاخبة في نفس الوقت، تتفرع في المكان كما لو كانت نبتة تسقى مدى الحياة، تحس وأنت فيها وكأن هذه المدينة تحمي أهلها وتحمي حياتهم الخاصة، تنام فيها بهدوء دون أن تتذمر من صراخ جيرانك أو تخاف أن تسمع ألفاض نابية قد تحرجك، عكس الرباط، خصوصا تلك البقع السوداء التي تعتلي فيها البيوت بعضها البعض بشكل لا يوصف، وتفصل بين صفوفها أزقة مخيفة.. هناك تحدث أمور غريبة، أغرب من أن يصدقها سكان اسطنبول الذين تعرفت عليهم طوال إقامتي هنا، بقع ملعونة مليئة بالخونة والمجرمين.. الليل محرم هناك، فمملكة الليل تتنازعها كائنات عدة، القطط والكلاب، الحشرات والصراصير الحمراء، الجرذان المتوحشة والضباع الآدمية التي لم تتمكن السلطات وأعوانها من القضاء عليها، على الرغم من وجودهم هناك بشكل دائم.. هم كذلك متورطون فيما يحدث هناك.. مجرد التفكير في تلك المنطقة التي أتيت منها يثير اشمئزازي

وحنقي. تلك المنطقة الحقيرة التي كانت من بين الأسباب التي ساهمت في تدهور حالتي النفسية. ففي الوقت الذي تكاد فيه تجن ويكاد رأسك أن ينفجر من كثرة التفكير وتترجى عيناك أن يغمضا ولو قليلا، يكون جيرانك المحترمون قد أعدوا العدة للسهر على بقائك مستيقظا طوال الليل بصراخهم الصاخب وأصوات موسيقاهم المقززة. وحتى إن هدأت الأمور قليلا فإنك بلا شك ستسمع الحوارات العبيطة بين الأزواج المثيرين للشفقة، فهذا يصرخ على زوجته لأنه لم يجد سرواله الداخلي، وهذه تهدد خنزيرها بأن تتوقف عن مضاجعته لو استمر في عناده ولم يحضر لها أكلتها المفضلة، و هؤلاء يصرخون على أبيهم لأنه لم يحضر لهم ما طلبوه منه، وهو بدوره يصرخ على بقرته لأنها هي السبب في تدليلهم.. وأنت تجلس في ركن ما في بيت أبيك، تحس وكأنك لاجئ قاموا باستضافته إلى أجل مسمى.. تتأمل الجدران ثم تغطي وجهك بغطاء متسخ لأن أمك ليست خادمة عندك لتغسل الغطاء، تغلق أذنيك بقطعتي قطن وتغمض عينيك الحمراوتين بسبب الغبار الذي يغطي وسادتك.. ثم تنام لتجد نفسك تقفز مذعورا مرة أخرى بسبب الكوابيس التي لم تعد تفارقك.. ليستحيل بعدها النوم مجددا لأن جيرانك المتوحشون قد استيقظوا من نومهم.

صباح يوم الخطوبة، بقيت ممددا في السرير أفكر في اللاشيء، ثم قمت إلى الحمام والفوطة فوق كتفي، زفرت زفرة عميقة كأنني أريد إخراج كل ثاني أوكسيد الكربون المحتقن في صدري طوال هذه السنين، وأخيرا.. همست.

خطوات بسيطة تقربني من الهدف الذي رسمته، خطوات تعمق شعوري بالفخر، أشعر وكأنني أنتزع النصر من العبث وهزمت سوء الطالع الذي خيم على أحلامي لسنوات..

تبدوا الحياة أسهل وأبسط الآن، حياة امتلأت بالإشراق، بالتوهج و بالحب.. وناذرا ما تتربص بي الذكريات الملعونة بسخافاتها وتحدق إلي بشراهة.. ابتعدي عني أيتها الملعونة فاليوم يومي وسأتخلص منك بشكل نهائي.. فإذا كنت قد فشلت في هزمك وردم أحداث تلك السنوات وإقصائها من ذاكرتي نهائيا، فلأن بعض الذكريات تبدوا عبئا على حاضري، بل وتحاول إلقاء ضلالها عليه وتعكيره صفوه، لذا لابد لي من الإقرار بالإجهاد الذي سببه لي ذلك الصراع الخفي، بين ذكريات تستعصي على النسيان، وبين حاضر يعمل بدأب على محوها والتنصل منها إلى الأبد..

لم أكن متوترا وأنا أرتدي ملابسي استعدادا للحفلة المرتقبة، فأسرة ايلين صارت بمثابة أسرتي أنا كذلك، بعدما تعددت لقاءاتي بهم في

الآونة الأخيرة خصوصا مع السيد جورج الذي تطورت علاقتي به بشكل كبير وبات يزورني في بيتي لمشاركتي في الشيشة كما كان يفعل العجوز الذي تمنيت لو كان حاضرا معنا اليوم..

ركبت السيارة بجانب السيد عمر الذي أصر على مرافقتي بدل الذهاب وحيدا.. كانت معنا زوجته، السيدة أصالة.. امرأة مثقفة، جميلة ومتواضعة تستحق كل الاحترام والتقدير..

وصلنا وكان السيد جورج والسيدة نوال في استقبلنا، استقبلونا بحفاوة كبيرة، جلسنا في صالون كبير نحن الرجال، أما النساء فصدى حديثهن يصل إلى مسامعنا من ركن آخر في البيت الواسع، لم أرى ايلين حتى الآن، يبدوا أنها لم تستعد بعد، السيد جورج استغل وجود عنصر ثالث ليتحدث مرة أخرى عن الأمور السياسية، في انتظار قدوم باقي الضيوف، كان السيد عمر ملما كذلك بأمور السياسة مما جعلني أنا والسيد جورج نكتفي بالصمت والاستماع.. كان حديثا مشوقا لولى تدخل النساء وانتقلنا جميعا إلى الحديقة حيت سيقام الحفل.. السيدة نوال كانت قد رتبت كل شيء جزاها الله خيرا.. نظرت إلى المكان، كل شيء منظم ومرتب.. من أجل من؟ من أجلي أنا، الغريب الذي ظهر فجأة في حياتهم فاستقبلوه هكذا وببساطة.. لم يطلبوا مني شيئا بالمقابل ولم يشككوا

في نواياي يوما..

كان عدد الحاضرين لا بأس به، النساء المتزوجات في ركن رفقة أطفالهن، العازبات الجميلات يشكلن دورة حول ايلين وفي كل مرة يستدرن نحوي ويضحكن، أما الرجال ففي ركن آخر بعيدا عن النساء يرتشفون الشاي ويتحدثون، لم أكن أعرف أحدا سوى السيد جورج والسيد عمر، لذا لم أكن متحمسا للحديث معهم، وبقيت ساهما طوال الوقت، ابتسم في وجوههم كلما أحسست أنهم قالوا شيئا مثيرا.. ثم فجأة بدأ الجميع يرقصون على نغمات أغنية للأسطورة إبراهيم تاتليس، كنت قد اتفقت عليها أنا و _ايلين_ من قبل، المجنونة أبت إلا أن تحرجني أمام الجميع، فقد كانت تعلم أني لا أحب ولا أجيد الرقص فأرسلت اثنتين من صديقاتها الجميلتين وأرغمنني على الرقص، كنت أبدوا كالأبله بينهم ونظراتي إلى ايلين يملأها الوعيد.. أنقدني السيد جورج من ورطتي حين تقدم نحوي وأخذ يرقص هو الأخر بشكل غريب ، ليلفث انتباه الجميع نحوه ونجوت، الكل كان يضحك عليه، تراجعت إلى الخلف أراقبهم.. كانوا سعداء جدا من أجلنا.. السيدة نوال ترقص وتضحك وكأنها في ريعان شبابها، وبجانبها طيف أمي العابس.. السيد جورج برقصه العجيب يراقبه طيف أبي باحتقار.. أما طيف

إسماعيل فقد كان يقف بجانبي وهمس في أذني: يبدوا أنك قد وقعت في فخ إحداهن أخيرا.. ابتسم في وجهي ثم رحل، أردت أن أوقفه لكنه اختفى.. ولولا يد ايلين التي اشتبكت بيدي فجأة لبكيت كالطفل وسط الحضور، لكنها أحست أن شيئا ما يجول في خاطري، أنقدتني..

لمسة ايلين الدافئة أعادتني إلى رشدي واستجمعت قواي.. إنه يومي ولا أريد أن أفسده.. كان السيد جورج قد تحمس أكثر، وبدا يستعد لإلقاء خطابه أولا، فمن عاداتهم البسيطة أن يلقي بعض الأفراد من كلا العائلتين خطابا أمام الجميع.. وقف المجنون وسط الحضور حاملا كأسا من الشمبانيا في يده اليمنى، كان ينظر إلينا، أنا و ايلين و حاول أن يتحدث بجدية:

عزيزي زياد.. صغيرتي روشان

كما تعلمان، فأنا قد صرت عجوزا على غرار زوجتي التي تزداد شبابا وجمالا كل يوم.. كان ينظر إليها بشوق واضح وهي بدورها تراقبه بعينين مشرقتين.. ثم عاد وأكمل حديثه:

لن أطيل عليكم كثيرا فنحن العجزة نتحدث كثيرا حين نجد الفرصة.. لكن لابد وان أستغل الفرصة وأقدم لكم بعض النصائح المهمة لحياة هنيئة: الثقة والتضحية، لاشيء أسمى من هاتين

الخصلتين، اعملوا بهما وستتذكرونني دائما.. ثم أردف:
لي طلب قد يبدوا عاديا بالنسبة لكم لكنه مهم بالنسبة لي..
صمت الجميع في انتظار سماع طلبه.. فقال وهو ينظر إلي: أريد حفيدا في أسرع وقت ممكن، فانفجر الجميع ضحكا وعادوا للرقص وتناول الطعام.. أما هو فقد اتجه نحوي وربت على كتفي وقال: أنا أثق بك.. صافحته بحرارة بدوري ، لن أخذلك وسأجعل صغيرتنا تعيش في سعادة دائمة..
بعد ذلك اجتمع الجميع حولنا، أنا و ايلين وأخذوا يلتقطون لنا صور ونحن نتبادل الخاتمين.. وأجمل تلك الصور، تلك التي التقطت لها وهي تقبل يدي أمام الجميع، فعلت ما كان يجب أن أفعله أنا.. كان إحساسا وشعورا لا يوصف.

متعبا تلك الليلة، ارتميت في السرير، أفكار وهواجس تنتابني، أحاول أن أبني فكرة واضحة على كل ما حدث معي في الأشهر الماضية.. شريط الأحداث يمر في ذهني، تحت الوسادة علبة سجائر كنت نسيتها هناك يوم احتفالي مع نفسي ، أخرجت سيجارة، أشعلتها متمنيا أن أنفث مع دخانها بعض القلق الذي تربع على وجداني فجأة.. فضميري الملعون عاد ليؤنبني بطريقته الخاصة.. راح يسألني ويطلق كلمات في الهواء دون حسيب ولا رقيب.. كلمات وأسئلة يعلم أنني سمعتها ملايين المرات في مضى ولم تغير شيئا.. كنت أراقبه بعينين متعبتين وهو يتحدث بانفعال واضح.. هل أنت سعيد الآن بعيدا عن أهلك؟ هل هذا ما تريده حقا؟ أستهجرهم للأبد وستنسى كل شيء بهذه البساطة؟ ألن ترحم أمك التي لا تعلم إن كنت حيا أو ميتا؟

تشنجت أعصابي ورحت أصرخ في وجهه بدوري.. نعم أنا سعيد بعيدا عنهم ولا أحس بذرة شوق اتجاههم، أنت لن تحس بي، أنت لم ترى السياط التي كانت تجلدني كل يوم معهم، لم ترى الشماتة والاشمئزاز التي رأيتها في عيونهم، لم تكن مضطرا يوما لتسمع تلك الأم التي تتحدث عنها وهي تصفني بالنكرة، لم تتحمل إهانتها يوما وهي تطلب مني أن أخرج إلى الشارع.. لم تتجرع مرارة أن تفقد

أمك وهي حية ترزق.. دعني وشأني ولا تفسد علي فرحتي.. فأنا سعيد هنا، بعيدا عنهم وعن ذلك الوطن الذي لم يفهمني يوما، دعني وشأني فأنا الآن أحس وكأني لم أولد ولم أكبر هناك، علاقتي بهم و به توترت كثيرا ولا أعتقد أنها قد تتحسن يوما ما.. تبا له ولسكانه، سكانه الذين كنت أتمنى أن يتقبلوني كما أنا ولا يفرضوا علي جهلهم لتبقى العلاقة مستمرة، و لكي لا أفكر في الهروب كما فعلت.. الهروب كان خلاصا بالنسبة لي، استطعت أن أتخلص من ذاكرتي التي كنت أعتقد أنها ستطاردني في كل مكان، وأن الحنين قد يقتلني.. لكني كنت مخطئا، لا أحد سيحن إلى تلك الأشياء التي لطالما استهجنها..

لن يهجم علي الحنين إلى ضجيج الحارات وأنا في منفاي الهادئ هذا، ولا لرائحة البول على الجدران.. ولا لأصوات بائعي جافيل وجامعي الخبز اليابس.. لن أشتاق إلى أحد هناك.. أنا مرتاح هنا، ابتسم لي الحظ أخيرا ولن أضيعه في التفكير في أمور تافهة..

سأعيش حياتي كما أريد ومع من أريد، لن أسمح لأحد بأن يفرض علي أسلوب حياته بعد الآن.. وأتمنى حقا أن يكونوا نسوا أمري وأخرجوني من ذاكرتهم.. لا أريد شفقة أحد.

الآن وقد وصلت إلى هذه المرحلة، لا يسعني إلا أن أكون واحدا ممن استطاعوا أن يهتفوا بأعلى صوتهم (بعد رحلة الحياة الشاقة والمليئة بالتجارب والألم) أجل، تذوقت حلاوة الحياة: فقد عشت وأحببت.

فلتضحك إذن يا زياد.. إضحك ودعني أضحك معك، تنفس واصرخ فقد ولدت من جديد، أعرف جيدا أنك كنت تعيش حياتك كما تشاء، وكما كان علي أن أعيشها أنا كذلك، كنت تعيش في خيالك حيث لا أحد يمنعك من الحلم، وتركتني أعيش في الواقع حيث كل شيء ضدي.. إضحك الآن، إضحك وساعدني أبحر عميقا حتى تنزف ذاكرتي سبب تعاستي.. الذاكرة الملعونة التي تحولت إلى أكذوبة دائمة ومستمرة.. إضحك يا زياد فأنت اقوي مني.

وأنا أتحدث مع نفسي بهذه الطريقة، تذكرت ما كتبه الدكتور زكريا إبراهيم في أحد وأبرز كتبه بعنوان مشكلة الحب.. أقتبس:

من منكم يستطيع أن يتحدث عن ذاتي فيقول أنا، من غيري يستشعر الآم الجوع في قرارة أحشائي فيصرح أنا جائع، أو يتجرع مرارة الخيبة في أعماق ضميري فيصيح أنا ضائع، إنكم تستطيعون أن تتعاطفوا معي، تشفقوا علي، ولكن من منكم يستطيع أن يحيا

حقيقة بواعثي فيهتف أنا مظلوم، أو أن يقف على صميم دوافعي فينطق بلساني قائلا: أنا بريء.. إنكم جميعا ترونني من الخارج، فتتصورون جوعي وتتخيلون فشلي، وتحكمون على أفعالي، وتبرئونني أو تدينونني.. إنني بالنسبة إليكم حالة تنظرون إليها، أو شيء تحللونه وتحكمون عليه.. ولكنني بالنسبة إلى نفسي ذات لا أملك الانفصال عن نفسي، ولا أستطيع النظر إلى نفسي باعتباري مجرد حالة! حقا إنني قد أتصور نفسي آخر، أتأمله وأشارك في حالاته النفسية والوجدانية..

آن الأوان أن أتحد معي نفسي، حان الوقت لأكون أنانيا بعض الشيء وأعيش لنفسي ولو على حساب الآخرين، بالرغم من أن هذا يخالف طبيعتي، فأنا بطبعي مسالم ومحب للناس لدرجة لا يتصورونها، لكن ما مررت به طوال هذه السنوات قضى على أغلب الخصال الحميدة التي كنت أمتاز بها ، لا بل وبدأت أقتنع أننا نعيش بقانون الغاب، القوي يسلخ جلد الضعيف دون رحمة..

لكن لحسن الحظ، يحدث أن نصادف أشخاص رائعين يجعلونك تطمئن على أن الإنسانية مازالت وستبقى بخير..

ايلين كانت بمثابة طوق نجاة بالنسبة لي، ففي الوقت الذي كدت أضيع وأخسر نفسي، ظهرت في حياتي البئيسة وأعادت إلي الأمل

الذي فقدته.. والله أعلم بما كانت ستؤول إليه حياتي لو لم أجدها.. فحين أسترجع الذاكرة قليلا وأفكر في الطريقة التي تعرفت عليها بها، ومدى التحول الذي طرأ على حياتي، لا يسعني إلا أن أعترف أن العناية الإلهية لعبت دورا كبيرا فيما حدث، وحقيقة الأمر أنني أشعر بتأنيب الضمير لأني في فترة ما من حياتي الشاقة، اعتقدت أن الله تخلى عني ونسي أمري.. وحتى إن كان ذلك صحيحا وأن الله قد تخلى عني في فترة ما، فإنني أتحمل مسؤولية ما حدث بشكل كبير، بالرغم من أنني مجرد إنسان ضعيف لكن وكما قال الشاعر المصري هشام الجخ في إحدى روائعه:

أهملت الله فأهملني.. ومن يهمل الله ولا يهمل!

أجدها منطقية بقدر كبير، لكني الآن مؤمن أن الله لا يتخلى عن أحد من عباده، مهما بلغه الإنسان من إهمال لواجباته المفروضة.. فالله يهملنا قليلا حتى نكتشف بأنفسنا أمورا لن نفهمها لو كانت حياتنا تماما كما نريدها.. لكنه أبدا لا يتخلى على أحد من عباده بالرغم من أن بعض الأقدار تبدوا قاسية أحيانا.. فيا ربي عفوك وغفرانك..

أشعر بسعادة لا توصف، كيف لا أسعد وقد حظيت بالحب الذي لطالما أنكرت وجوده، فإن سألتني بعد عشر سنوات من الآن، سأقول لك نعم أحببت.. نعم عرفت وزرت ذلك الموسم الإلهي الذي يسمونه موسم الحب.. نعم حظيت بلحظات سعيدة من حياتي، لمجرد أنني أحببت، لمجرد أنني شعرت بأنني أحيا من أجل شخص أخر، نعم أدركت في وقت ما أن الحب هو الحياة..

أما الآن وفي هذه اللحظة لا يسعني إلا أن أشكر تلك الجدران الأربعة التي انطلقت منها فكرة الهروب.. أن أشكر السجائر التي لطالما كانت وما زالت بجانبي، أن أشكر الخمر الذي كان يرسلني إلى عوالم أخرى أستريح فيها ولو للحظات.. أن أشكر البكماء التي منحتني آخر متعة لي في الرباط.. دون أن أنسى الله الذي هداني وجعل الأمور تسير بسلاسة.. فعبثا لم أكن لأجد سعادتي بين أهلي ووسط شوارع الرباط، وطبعا أن أشكر اسطنبول التي استقبلتني بصدر رحب دون أن تسألني عن ماضي الأسود، بل ومنحتني أناسا لطفاء جعلوا حياتي أسهل وأجمل.. ولو كنت أعلم أن سعادتي هنا لما أضعت يوما واحدا هناك.. سنوات وأنا أعاني في صمت، أشيخ وأتعب وأنا في ريعان شبابي، كاد كل شيء يذبل في ويسقط مني بسرعة، وأنا كنت أكفر عن حياتي، أقوم بتبريرها.. مت هناك بطرق

مختلفة، كان النور قد أوشك على الرحيل من عيناي، كت فاسقا، منعزلا، في حين أن الحياة كانت بديعة الجمال، لكن ليس هناك، بل هنا في وطني الجديد..

تذكرت بعض الأصدقاء الذين جمعتني بهم الظروف في الرباط، رشيد، سعيد، أيوب، عبد الجليل، أسامة، إسماعيل بالرغم من أنه كان استثناءا.. شبان كانوا مثلي تماما، يعيشون على إيقاع البطالة والإهمال، تجمعنا المقاهي غالبا، نخفي حسرتنا خلف ضحكات عالية، كنا نعلم أننا في دوامة لا نقوى الخروج منها، أغلبنا جرب تقديم الطلبات واجتياز مباريات التوظيف لكن دون جدوى.. كنا نعلم أنه لا فائدة من تلك المباريات، لكننا نستمر في اجتيازها تحديا للملل فقط.. وفي الأخير حين فقدوا الأمل، حسموا أمرهم وانخرطوا في أعمال أقل ما يقال عنها أنها مزرية ولا ترقى إلى مستواهم.. لكنهم انخرطوا فيها، المهم أن توفر لهم قدرا من المال يبعد عنهم شبح استجداء الأسرة لمنحهم مصروف اليوم.. عملوا في المقاهي، مراكز الاتصال، سوق الخضر، الحراسة الليلية... إلا أنا كنت عنيدا، إحساس قوي بداخلي يحثني على ألا أفعل مثلهم.. شيء ما بداخلي يمنعني من الاشتغال في تلك الأعمال المثيرة للشفقة.. لا أدري إن كان كبرياء أم غرورا أم خوفا، لكني كنت مقتنعا أنني

خلقت لأجل شيء آخر، ربما للكتابة.. ففي الوقت الذي كانوا يعملون بجد في أعمالهم التي يلعنونها في كل مرة ألتقي بأحدهم، انخرطت أنا في إحدى المكتبات العمومية.. وجدت ضالتي هناك، وسط تلك الكتب والروايات.. كنت أقرأ كثيرا لدرجة أن موظفات المكتبة قررن أن يمنحنني جائزة رمزية كأفضل قارئ.. كانت بادرة جميلة منهن خصوصا لأمثالي الذين يعيشون وسط الأميين والجهلاء، وسط أشخاص يعتبرون القراءة مضيعة للوقت..
إحساس جميل وأنا أرى نظرة الإعجاب في عيونهن، لكني كنت أعلم أن تلك النظرة مختلفة تماما عن نظرة أهلي وأصدقائي الذين فضلوا المال على المعرفة، فأنا بالنسبة لهم مجرد فاشل.. وفي كل مرة أخبر أحدهم أنني أكتب رواية كان يستهزئ بي ويستخف بقدراتي التي لا يعلم عنها شيئا.. ثم يرحل عني قائلا: الناس تجمع الأموال وأنت تجمع الكتب.. صحيح أنني كنت أعاني من ضائقة مالية بسبب عنادي وعدم قبولي لتلك الأعمال لكني فضلت أن أستمر في عنادي وأن أمنح الفرصة للكتابة.. لكني مع الوقت لم أستطع الاستمرار في ظل الظروف التي كنت أعيش فيها وسط أهل لا يكفون عن التذمر وأصدقاء مزيفون وجبناء.. لدى قررت أن أهجرهم جميعا وأبتعد عن الكتابة إلى أجل غير مسمى.. حينها

انعزلت وحيدا في تلك الغرفة التي اكتريتها بعيدا عن الجميع و تلك الغرفة هي التي ساعدتني كثيرا في اتخاذ قرار مهم في حياتي.. والآن وأنا ممد في سرير الدافئ، أرتشف قهوة لذيذة، تأكدت أنني اتخذت القرار الصحيح والمناسب ولو على حسابهم..

عدت إلى العمل بعد إجازة دامت أسبوعا، تلقيت التبريكات من هنا وهناك، من أناس غرباء لكنهم لطفاء، زملائي في العمل وبعض الجيران الذين ناذرا ما أحدثهم.

الجميل في العمل وسط الكتب في هذه المكتبة الجميلة هو أنها تسمح لي دائما في التعرف على أناس وشخصيات جديدة ومثقفة، سواء بيت أسطر الروايات والكتب التي أقرأها باستمرار، أو في الواقع حين يأتي شخص مشهور ليبتاع كتابا ما، بالإضافة إلى أن أغلب أصدقاء السيد عمر أناس متواضعون مثقفون ودائما ما تتاح لي الفرصة لإلقاء التحية عليهم والدردشة معهم للحظات..

بعد حفل الخطوبة، بدأت ايلين تستعد لامتحاناتها الأخيرة.. نادرا ما نلتقي أو نتحدث، وهذا مريح نوعا ما، فعبد شهر ستكون أكثر شخص أراه وأتحدث إليه طوال اليوم.. غريب أمر العلاقات حقا ، فالغريبة التي كانت منزعجة من دخان سجائري في ذلك المقهى، ستكون زوجتي وستنام بجانبي في بيتنا، سنتخلى عن طريقتنا المهذبة

وسنطلق العنان لعفويتنا بعد الزواج، سأخرج الغازات بوجودها وستتجشأ أمامي بكل حرية، ستغدو تلك الأشياء التي نخفيها ونسميها عيوبا، أمورا عادية، تلك الأشياء التي تميز كل شخص عن الآخر، طريقة المشي، الأكل و النوم وحتى طريقة الكلام.. كل هذه الأشياء نعتبرها عيوبا فينا حتى نتعرف على الشخص الذي سيحببها إلينا فينا، لم ألاحظ أي عيب في _ايلين_ لابد وأن الحب قد أعماني، لكن كل شيء يبدوا طبيعيا ومثيرا، لا أدري إن لاحظت شيئا غريبا عني أم لا، وحتى إن لم تلاحظ شيئا، فحتما ستكتشف أمورا كثيرة بعد الزواج، ستكتشف أنني أكره الحناء كثيرا ولن أتناول طعاما مطبوخا بأيادي محنية، كانت أمي تعلم هذا جيدا ومع ذلك تستمر في استفزازي.. ستكتشف أني أكره أن يمضغ أحدهم الطعام بقربي بصوت مسموع، كذلك أمي تعلم هذا وتستمر في إزعاجي مما اضطرني إلى تناول الطعام وحيدا في أغلب الأوقات، وأكيد ستكتشف أنني أحب التقبيل كثيرا، قد يعجبها الأمر وقد يزعجها، لكني لا أقوى على مقاومة الشفتين خصوصا شفتيها، وغالبا سيعجبها الأمر فلطالما أبدت إعجابها بطريقتي في التقبيل، والفضل يعود إلى بنات الرباط اللواتي لم يبخلن علي بشفاههن التي لا أنكر أن بعضهن كان مثيرا للغاية.. لم يسبق لي أن

خرجت مع إحداهن في موعد وحتى إن لم يكن غراميا ولم أقبلها، فكلهن يستسلمن بسهولة في أول لقاء، كل ما يتطلبه الأمر هو القليل من الكلام الموزون وبعض الغموض.. لا أدري إن كن قد تعودن على ذلك مع أي كان، أم أن سحري قوي حقا كما صرح أغلبهن..لا يهم ذلك الآن بالرغم من أنني في دواخلي نادم على تلك الأفعال التي كانت تبدوا في تلك المرحلة ممتعة، لكن ليس في الوقت الراهن وأنا مقبل على الزواج، فحقيقة أن تكون زوجتك المستقبلية قد قبلها أشخاص قبلك تبدوا مزعجة جدا، لهذا نحاول ما أمكن تجاهل الدخول في تفاصيل الماضي، لا لشيء سوى لنعيش في هناء بعيدا عن الغيرة المدمرة.. ففي عصرنا المتحضر أكثر مما يجب، يستحيل أن تجد فتاة لم تدخل في علاقات مشبوهة، سواء بدافع الحب أم بتعرضها لاحتيال من طرف بعض الذئاب الذين سيستمتعون باستغلال براءتها وسذاجتها..

مر الأسبوع الأول بعد الخطوبة كأنه سنة، اليوم فيه بشهر.. كنت أنتظر بشوق كبير اليوم الذي سأنفرد فيه با يلين ليس رغبة في الجنس طبعا، إنما لأني سألتحق بركب المتزوجين، الركب الذي لطالما امتنعت عن التفكير فيه، ناهيك عن محاولة الوصول إليه، وها أنا الآن أستسلم وألتحق به رفقة صغيرتي.

أعلم أن أمورا كثير ستتغير بعد الزواج، ستتغير أيلين وسأتغير أنا كذلك، بالأحرى سنظهر على حقيقتنا.. ستتذمر من تصرفاتي التي لن تبقى كما كانت، سأغضب من كثرة تساؤلاتها التي ستزداد حتما.. ستبكي أحيانا كثيرة وسترفض النوم بجانبي، سأنام في مكان آخر لأني سئمت الجدال معها.. في قرارة أنفسنا سنفكر في الطلاق في فترة ما.. لكن كل هذا لن يمنعنا من أن نتزوج، من أن نستمتع ببعضنا البعض لأطول وقت ممكن، هكذا سيكبر حبنا وتكبر معه تضحياتنا، سنخرج معا في موعد غرامي كمراهقين بالرغم من أننا صرنا كهلين متعبين، سنلعب معا وكأننا طفلين صغيرين، سنسخر من أنفسنا حين نتبادل القبل بأفواه خالية من الأسنان.. سنقاتل من أجل أن نبقى معا حتى آخر يوم في حياتنا.. سنحاول أن نشيخ معا ولما لا أن نحارب الموت معا..

ايلين ستسافر غدا إلى أنقرة رفقة والديها حتى تبقى قريبة من مقر

امتحاناتها، وحتى تبتعد عن أجواء اسطنبول الصاخبة.. أخبرتني أن والدها يملك شقة جميلة هناك ، وهناك كانت تمضي أغلب أيامها فيما مضى.. أتذكر أنها قالت لي مازحة أنه قد يعطينا تلك الشقة كهدية، لكني رفضت بشدة، فحتى الآن قد قاموا بالكثير من أجلي، ولن أقبل شيئا آخر.. صحيح أن امتلاك شقة هنا في تركيا وحتى في أي مكان في العالم يقتضي أموالا كثيرة لكني لن أقبل شقة جاهزة لمجرد أني زوج ابنته.. أعلم أنه سينزعج من رفضي فهو كريم بطبعه، ومثل هذه الأمور عادية جدا بالنسبة إليه، وقد سبق له أن حاول إقناعي بأن نسكن معهم في نفس البيت بعد الزواج..
سأكتفي بالبيت الذي أكتريه الآن، على أمل أن أمتلك شقتي الخاصة يوما ما.. قد يعتبرني البعض أحمقا لأني رفضت هدية كهذه لكن هذا طبعي، ما إن أرفض شيئا حتى أصير عنيدا ولن يستطيع أحد إقناعي بالتراجع..
التقيت بإيلين قبل رحيلها إلى أنقرة، حظيت مني بكلمات تشجيعية وبعناق حار.. أعتقد أن هذا كفيل بتهدئة روعها بالرغم من أنها بدت هادئة جدا.. أصبحنا ناضجين حقا، تصرفنا وتحدثنا كالمتزوجين الذين يغلب طابع الجد على كل تصرفاتهم، وهذا جيد بالنسبة لي، أخيرا تخلصت من طبعي الساخر، أخيرا صرت شخصا

يستطيع أن يحسس الآخرين بأنه يحس بالمسؤولية وليس مجرد شخص طائش لا يفرق بين الجد والمزاح، أعتقد أن الفضل يرجع إلى تلك الروايات والكتب الفلسفية التي قرأتها على مدى هذه السنين، والأجمل أن ايلين كذلك تحب القراءة، فلطالما تبادلنا الروايات وناقشنا أغلبها، وهذا شيء يفتقده أغلب اللواتي عرفتهن من قبل.. ايلين مختلفة ودائما ما تشجعني على الكتابة.. صحيح أن فكرة الكتابة لطالما راودتني حتى قبل قدومي إلى هنا، الحق أنني قمت بمحاولات عدة، خصوصا لما كنت أرتاد تلك المكتبة العمومية في الرباط، إلا أن الظروف لم تكن لتسمح لتلك المجنونة العنيدة المدعوة إلهام بأن تستسلم لي وتساعدني على إطلاق العنان لمخيلتي وأكتب رواية واحدة على الأقل قبل رحيلي من هذا العالم.. لهذا اكتفيت بالقراءة التي كادت ترميني إلى مراتع الجنون في فترة ماضية من حياتي.. كنت متهورا وتعمقت في الكتب الفلسفية، كنت أقلد أولئك الفلاسفة المجانين حتى انتهى بي المطاف في المستشفى.. حتى أن أمي قررت آنذاك أن تحضر فقيها إلى البيت ليقرأ علي ظنا منها أن جنيا قد مسني.. أبي كان غاضبا من تصرفاتي بعدما تزعزع عقلي واختلطت علي المفاهيم، بدا لهم كلامي مبهما لكثرة استعمالي للمرادفات الفلسفية.. كنت أسخر منه وأصفه بعديم

الشخصية، كان يعتقد أنني صرت ملحدا وألح علي يوما أن أنطق الشهادتين.. لا أدري لماذا يربط أغلب الناس الفلسفة بالإلحاد.

في نهاية الأسبوع، قمت بزيارة ايلين في أنقرة.. تناولنا الغداء في شقتهم، لعبنا الورق قليلا ثم عاد السيد جورج إلى الحديث الذي لا يمل منه، عن السياسة.. أزعجه عدد اللاجئين السوريين الذي بدأ يتزايد يوما بعد يوم هنا في تركيا.. عمت الفوضى بعض المناطق مما جعل الحكومة تعمل أكثر على حل هذه الأزمة، لكن اليد الواحدة لا تصفق على حد تعبيره.. فتركيا هي التي تتحمل العبء الأكبر فيما يحدث. طال الحديث مما جعل السيدة نوال تتدخل هي كذلك، وطبعا لم يكن همها سوى حال الأطفال والنساء السوريات، أما الرجال لا يستحقون الشفقة لأنهم هم سبب كل هذه الفوضى.. و أما ايلين فقد اكتفت بمراقبتنا دون أن تبدي رأيها، وحتى إن تدخلت فهي تدعم دائما فكرة الحوار بدل العنف.. أنا كذلك ضد العنف وسياسة الميليشيات التي تدعمها وتفضلها أغلب الحكومات لحل الأزمات، وأؤمن أن الحوار الفعال مهما طال سيكون الحل الأنسب لحل الأزمات دون أضرار وخسائر عويصة، لكن للأسف لا الشعوب ولا الحكومات العربية تمتلك

ثقافة الحوار.. وهذا طبيعي ومتوقع، فالإنسان العربي يتعرض للقمع والتهميش منذ نعومة أظافره، ابتداء من أسرته، مرورا بمدرسته، إلى أن يصل إلى ريعان الشباب.. ليبدأ دور الدولة في تحطيمه.. لدى لا داعي للاستغراب إن ثار هذا الشاب على من كانوا يقمعونه طوال حياته ولا يقبل أي محاولة للحوار..

ودعت الين وعدت إلى اسطنبول، وسيلتحقون بي في الأسبوع المقبل، مباشرة بعد انتهائها من امتحاناتها الأخيرة.. العرس لم يتبقى له سوى عشرون يوما.. عشرون يوما ستمر بطيئة جدا علي، لكن لابأس ببعض الانتظار خصوصا حين تعلم يقينا أن اليوم الموعود سيأتي حتما..

في تلك الليلة وقفت أمام المرآة، أنظر إلى انعكاسي بفخر شديد، ابتسمت له، أخبرته أنه جميل، وأنه يستحق كل السعادة التي حضي بها في الأشهر القليلة الماضية.. و مرة أخرى تذكرت أيامي في الرباط، كنت أقف أمام المرآة مشمئزا وأنا أنظر إلى نفسي، أنظر وبالكاد أستطيع رؤية وجهي وقد محيت كل ملامحه، كنت أتساءل وأنا خائف من الجواب، هل سأموت هكذا؟ نكرة؟

أحسست بشعور جميل بعد هذه المقارنة، عدت إلى السرير وبدأت اقرأ رواية للكاتب ميلان كونديرا حتى غفوت.

كنت منهمكا في العمل، أصنف بعض الكتب الجديدة وأرتبها في الرفوف حين تلقيت اتصالا مفاجئا من السيد جورج.. كانت الساعة تشير إلى الرابعة زوالا، طلب مني بصوت مضطرب أن أعود إلى أنقرة ثم انقطع الخط دون أن يعطي لي الفرصة لأستفسر السبب، فلم تمر سوى أربعة أيام منذ زرتهم آخر مرة، طلبت الإذن من السيد عمر وانصرفت.. غيرت ملابسي في المنزل وأسرعت إلى محطة القطار.. يبدوا أن شيئا ما قد حدث فالفوضى تعم كل الأرجاء ورجال الأمن في كل مكان، لكني لم أبالي لأن بالي مشغول بذلك الاتصال المفاجئ، ثم إن هذه الحالة اعتدناها خصوصا مع توافد اللاجئين المستمر..

وصلت إلى الشقة.. إحساس غريب انتابني فور دخولي.. السيدة نوال كانت تقف شاحبة تحاول إخفاء الدموع الغزيرة التي تسيل من عينيها دون انقطاع، كان هناك أناس آخرون لكني لم أعرهم أي انتباه وحولت نظري نحو السيد جورج الذي بدا متماسكا، لكنه انهار بشكل فضيع حين أخبرني أن ايلين قد توفيت..

أحسست لحظتها برعشة باردة تغزوا جسمي المرتعش، انطلقت من خصيتاي حتى تجمدت في جمجمتي.. فقلت مستنكرا: لم أسمع جيدا، ماذا قلت؟ اقترب مني بخطوات ثقيلة وكأنه خائف من ردة

فعلي، عانقني بلطف وقال بصوت منكسر: لقد قتلت في انفجار إرهابي في محطة القطار وهي في طريقها إلينا، قتلها الوحوش..
تراجعت وكأني فقدت السيطرة على أعضائي، تركت جورج الذي خارت قواه وارتطمت ركبتاه بالأرض بقوة.. لم أدري ماذا حدث لي فبدأت أضحك.. ضحكت بصوت مرتفع ثم غادرت الشقة وأنا مازلت أضحك.. التقيت ايلين في الباب السفلي للعمارة التي تتواجد فيها الشقة.. طلبت منها أن تتمشى معي فوافقت بالرغم من أنها كانت متعبة، تمشنا طويلا وتحدثنا كثيرا لكني كنت منزعجا من الطريقة التي كان الناس ينظرون إلينا بها، كانوا يرمقونني باستغراب وكأني أقوم بفعل فاضح في الشارع العام.. أخبرتها أن الشوق يقتلني ولم أعد أستطيع انتظار نهاية الشهر، فلنتزوج بسرعة.. وافقت بدون تردد ثم عدنا بسرعة إلى الشقة كي نخبر والديها، بدأنا نجري في طريق عودتنا الذي بدا طويلا جدا، وصلنا ونحن نلهث، مرة أخرى بدأ الناس ينظرون إلينا باستغراب.
أخبرنا السيد جورج الذي بدا عابسا أننا غيرنا تاريخ العرس، راحت ايلين تتوسله أن يوافق لكنه لم يعرها أي انتباه، وكأنه لا يسمعها ولا يراها، غريب أمر العالم اليوم فحتى جورج ينظر إلي بشكل غريب.. انزعجت كثيرا ثم أخذت ايلين من يدها وخرجت من الشقة تحت

نظراتهم الغريبة.

عدنا إلى اسطنبول، وفي القطار كان الركاب يراقبوننا باندهاش ونحن نتحدث.. بدا لي وكأننا في برنامج هزلي، أو كأننا مخلوقين فضائيين.. همست في أذنها: هل أنت مخلوق فضائي؟ فانفجرنا ضحكا مما جعل بعض الركاب يتراجعون إلى الوراء بعيدا عنا.. كنا قد أزعجناهم بما فيه الكفاية فخفضنا صوتنا قليلا، أخبرتها أن أبويها يتصرفان بشكل غريب اليوم فهزت كتفها: ربما تخانقا مجددا، لا تشغل بالك..

أسندت رأسي على النافذة ورحت أنظر إلى الطريق الذي يمر سريعا أمام عيناي.. الركاب مازالوا ينظرون إلينا بنفس الطريقة خصوصا النساء منهم، حتى أن أحدهم تجرأ وسألني: هل أنت بخير يا سيدي؟ تبدوا تائها.. نظرت إلى ايلين التي استغربت سؤاله وانفجرنا ضاحكين مرة أخرى.. قلت لك أننا مخلوقين فضائيين.. سئمت الوضع وصرخت في وجههم: ما بالكم أيها الأتراك المجانين، ألم يسبق لكم أن رأيتم عاشقين يجلسان معا؟

وصلنا إلى البيت.. وكعادتها بدأت تبدي ملاحظاتها المعهودة في كل مرة تكتشف فيها مكانا لأول مرة.. أما أنا فتوجهت إلى المطبخ لأعد فنجاني قهوة، وتركتها تستكشف بيتها المستقبلي.. فهذه أول

مرة أسمح لها بمرافقتي إليه.. عدت ومعي الفنجانين، وضعتهما فوق الطاولة في حين كانت هي تنظر إلى الصورة المعلقة في الحائط والتي تجمعنا معا، احتضنتها من الخلف ننظر إلى الصورة معا، الصورة التقطت لنا في حفلة الخطوبة وهي تقبل يدي.. كانت لحظة رائعة، لهذا وضعتها في إطار وعلقتها في الحائط المقابل للأريكة حتى أستمع برؤيتها في كل مرة..

جلسنا في الأريكة، نرتشف القهوة، نتحدث في أمور وخطط مستقبلية، أصبت بشراهة الحديث حتى خيل لي كأني أتحدث وحيدا، و هي تكتفي بمراقبتي في صمت رهيب، شعرت بانزعاج مفاجئ، قمت أبحث عن علبة السجائر، دخنت أمامها ولم تعترض.. لن أخفي أمر التدخين بعد الآن، فاجأتني حين تكلمت:

_ زياد.. هل لي بطلب صغير؟

_ طبعا حبيبتي تفضلي.

_ أريد مقابلة أسرتك..

_ أنا كذلك أريد ذلك لكني لا أستطيع..

_ لماذا؟

_ أفضل ألا نتحدث في الأمر الآن.

_ حسنا كما تريد

ارتمت في حضني واستسلمنا لخدر لذيذ، أغمضت جفناي ونمت وهي في حضني، أحسست بارتياح شديد لحظتها..

استيقظت مذعورا على دقات الباب القوية، من هذا الحيوان الذي يدق بهذه الطريقة الهمجية، كانت _ايلين_ قد غادرت وأنا أغط في النوم، فتحت الباب، كان السيد جورج رفقة امرأة أنيقة لم أراها من قبل، ربما هي سبب بكاء السيدة نوال، ربما اكتشفت خيانته لها..

_ تفضلوا.. شاي أم قهوة

_ لا شيء، قال جورج..

_ خلتك مازلت في أنقرة، لقد خرجت الين للتو من هنا.. لابد أنكما قابلتموها في الطريق..

نطقت المرأة الأنيقة أخيرا بعد أن تبادلت النظرات مع جورج:

_ نسيت أن أقدم نفسي، أنا الدكتورة كاميليا، صديقة جورج أعمل كطبيبة نفسانية.

حييتها ونظرت إلى جورج باسما، لم أكن أعلم أنك ماكر لهذه الدرجة يا جورج، وكأنها انزعجت من كلامي وتبادلت النظرات مع جورج مرة أخرى، كأنهما يتفقان على شيء ما، ثم عادت تكلمني:

_ لما لا تأتي لزيارتي في مكتبي غدا؟

_ آسف لا أستطيع، لدي عمل..

_ لا تقلق بشان العمل، أنا وجورج سنتحدث إلى مديرك.. لا تقلق

_ ممم.. حسنا مادمت مصرة..

_ تفضل بطاقتي، العنوان في الخلف

_ حسنا.. موعدنا غدا لنرى نهاية لعبتك يا جورج ..

وضعت البطاقة جانبا بعد رحيلهم، ثم تمددت في السرير استعدادا للنوم.. أحداث اليوم جعلت الأفكار والهواجس تهاجمني بعنف شديد، دموع السيدة نوال كانت حقيقية، والسيد جورج مهما تمادي في مزاحه فلن يستطيع التمثيل بتلك الواقعية الرهيبة، وتلك المرأة من تكون حقا؟ سيل من الأسئلة أصابني بصداع فضيع، تناولت مهدئا واستطعت النوم أخيرا..

شعرت بإحساس غريب فور استيقاظي، أحس بحالة من المرح والانشراح، تناولت قهوتي في صفاء يليق بذلك الصباح الهادئ، ثم توجهت إلى العمل.. بدا السيد عمر مفاجئا لقدومي إلى العمل وكلي نشاط وحيوية، لم يقل شيئا، اكتفى هو كذلك بتلك النظرة التي بدأت تثير حنقي، حتى هو تغير تعامله معي.. ماذا حدث للجميع؟ حتى زملائي في العمل أبدو اهتماما مفاجئا على غير

العادة، أغلبهم كان يتهرب من بعض الأعمال حتى أقوم بها أنا الذي لا أشتكي أبدا، وها هم يعاملونني بلطف، لم يكن العمل كثيرا اليوم أو بالأحرى ناب عني زملائي للقيام بها.. مر الوقت بسرعة، وقبل مغادرتي طلب مني المدير أخذ إجازة أخرى بحجة أن هذه الفترة تعيش ركودا وليس هناك عمل كثير.. شكرته وعدت إلى البيت ولم أحتج بالرغم من أني عدت للتو من إجازة سابقة..

في الطريق كنت أتساءل: أتكون هذه محاولة للتخلص مني؟ أهذه طريقته ليقول لي أنه سيستغني عني قريبا؟ لما لم يواجهني بالحقيقة ببساطة ويرحمني من كل هذا الغموض؟

وصلت إلى البيت الذي بدأ يفقد بريقه المعتاد، ارتميت في الأريكة وأخذت هاتفي أنظر إلى بعض صور ايلين التي التقطناها طوال هذه الفترة، حاولت الاتصال بها لكن هاتفها كان خارج التغطية..

اتصلت بجورج لكنه لا يجيب هو كذلك.. لا يهم ربما هم مشغولون بالإعداد للعرس أو شيء من هذا القبيل.. رميت الهاتف جانبا وقمت إلى المطبخ..

تناولت عشائي وجلست أشاهد فيلما للمبدع طوم هانكس، بعنوان كاست أواي بالرغم من أنني شاهدته من قبل حوالي عشر مرات إلا أنني استمتع به وكأنها أول مرة.. فيلم مؤثر، يحكي عن شخص

سقطت طائرته في البحر وكان هو الناجي الوحيد، لتجرفه الأمواج إلى جزيرة بعيدة وهناك بدأ يصارع من أجل البقاء، فيلم رائع، لا أدري لما فكرني في نفسي، أحس وكأني قادم من عالم مختلف عن هذا العالم الذي بدا مخيفا نوعا ما، سئمت النظرات المقززة التي تلاحقني أينما ذهبت في الآونة الأخيرة، يحملقون في وجهي مثل العقبان، كم من مرة أردت أن أصرخ في وجوههم جميعا صرخة غاضب ثائر، وكم مرة تبادر إلى ذهني المشوش لو أستطيع أن أفعل أمام أنظارهم مثل ما يفعل الأطفال الصغار في وجوه أندادهم حينما يكشفون عوراتهم وينحنون.. أحس بوحدة غريبة لا أعرف مصدرها لكني في أعماقي التي يستعصي النفاذ إلى سرائرها المعتمة، أعلم أن شيئا ما حدث أو سيحدث لي.. لا أدري ما هو حقا، أنا مشوش للغاية..

وكليلة البارحة عادت تلك الهواجس لتهاجمني بعنف واضح، أحس وكأني أتعرض لمؤامرة مرتقبة، هاتف ايلين المغلق، جورج لا يجيب على اتصالاتي العديدة، كأنهم يتجنبونني عن قصد، السيد عمر سيتغني عني قريبا وسأصبح عاطلا مجددا في بلاد لا تقبل العطالة.. نفس الصداع عاد هو كذلك لينقض على، هذه المرة ضاعفت المهدئ ونمت بصعوبة.

في الصباح توجهت مباشرة إلى بيت ايلين ضغطت الجرس وابتعدت عن الباب ببضع خطوات في حالة كانت هي من فتحت الباب، لتجري باتجاهي وترتمي في حضني المشتاق، اشتقت إليها كثيرا..

لكن لسوء حظي كان السيد جورج هو من فتح الباب ودون مقدمات، صرخ في وجهي:

ـ لماذا لم تذهب لزيارة كاميليا كما اتفقنا؟

ـ وهل أبدوا لك مريضا كي أزورها؟

لم يجب، دخل وأغلق الباب في وجهي بشكل مفاجئ، وقفت جامدا في مكاني، في البداية ظننتها واحدة من مزحه الكثيرة، لكنها لم تكن مزحة، جورج غاضب مني لسبب ما أجهله، بدأت أنادي ايلين وأرمي بعض الحصى باتجاه نافذة غرفتها، لكن دون جدوى، ماذا يحدث؟ بالأحرى ماذا حدث؟

عدت إلى البيت خائبا ومطأطأ الرأس، هل هذه محاولة للتخلص مني؟ هل اكتشفوا شيئا ما يخصني وأصبحت خطرا يهدد استقرارهم؟ ولماذا طلب مني زيارة تلك الطبيبة الملعونة؟ هل أنا مريض حقا ولا أدري؟ ما هذا الجنون الذي حل بي بشكل مفاجئ؟

أشعلت سيجارة علها تهدئ أعصابي المتشنجة، وتطرد هذه

الهواجس والوساوس التي تنظر إلي بتطفل بغيض، لو أعلم فقط من وراء كل هذا الجنون.. رميت جثتي المتعبة فوق السرير الذي لم يعد مريحا، أبحلق في الفراغ محاولا ألا أفكر في شيء، صمت رهيب خيم على بيتي الحزين.. ربما أنا أهذي فقط، ربما لا شيء يحدث حقا، ربما أنا متوتر فقط مع اقتراب موعد العرس، ربما، ربما..

حاولت الاتصال بالسيد جورج لأعتذر من تصرفاتي الطفولية، هذه المرة أجاب لكنه لم يعطيني الفرصة لأتحدث أو للاعتذار على الأقل:

ــ اسمع يا زياد، لا تتصل بي مرة أخرى ما لم تقم بزيارة كاميليا.

ما إن سمعت كاميليا صوتي وأنا أحدث السكرتيرة حتى هرعت إلي بخطى سريعة، يظهر ذلك من خلال صوت كعبها العالي الذي بدا وكأن فرسا جامحا قادم من خلف الباب، استقبلتني بابتسامة عريضة كأنها كانت تنتظرني بشوق، ثم طلبت من السكرتيرة الجميلة أن تلغي جميع مواعيدها الصباحية..

_ تفضل إجلس

_ شكرا

_ شاي أم قهوة

_ أستطيع أن أدخن هنا؟

_ طبعا

_ قهوة إذن

بسرعة مذهلة، أحضر شاب أسمر نحيل فنجان قهوة ووضعه أمامي، لم ينظر إلي ولم يستغرب وجودي، بدا لي طبيعيا أكثر من الآخرين، أشعلت سيجارة ورحت أجول في الغرفة بنظراتي المتطفلة، أنظر إلى الصور المعلقة في جدار مكتبها الواسع، تظهر في إحداها مع الرئيس طيب رجب أردوغان، لابد وأنها طبيبة ذات وزن في البلد، نظرت إليها لأجدها تنظر إلي بدورها والإبتسامة العريضة لا تفارق وجهها الجميل..

_ ما علاقتك بالسيد جورج إذن؟

_ جورج كان زميلي في الجامعة، واستمرت صداقتنا منذ ذلك الوقت.

_ ممم.. يبدوا أنني أسأت الظن بكما.

_ لماذا لم تأتي البارحة كما اتفقنا، انتظرتك طويلا.

_ نسيت، متأسف.

_ لا عليك، المهم أنك هنا الآن.

_ نعم أنا هنا، لكني لا أعلم لماذا!

_ جورج طلب مني أن أعاينك، فحص روتيني بسيط

_ وما المطلوب مني بالضبط؟

_ أولا أن تثق بي ثم تلتزم بالحضور للجلسات لمدة أسبوع واحد فقط، وأعتقد أنك مجبر لأن جورج مصر.

_ أعلم، المجنون منعني من رؤية ايلين .

_ اتفقنا إذن.

_ اتفقنا.

خرجت من المكتب وتوجهت إلى بيت جورج، ومرة أخرى كان هو من فتح الباب.. أسرعت القول قبل أن يغلق الباب مرة أخرى في وجهي:

_ لقد أتيت للتو من عند كاميليا، هل أستطيع رؤية ايلين الآن؟
نظر إلي مطولا قبل أن يعود أدراجه للداخل تاركا الباب مفتوحا، دليلا على أنه مرحب بي أخيرا، تقدمت نحو الباب بخطوات سريعة، البيت كانت في فوضي واضحة على غير العادة، السيدة نوال بدت كغراب عجوز في لباسها الأسود ووجهها الشاحب، حيتني ببرود ثم صعدت إلى غرفتها ببطء شديد، استغربت:
_ ماذا حدث؟
_ توفي أخوها الوحيد منذ أيام.
_ وتلك المجنونة ايلين أين هي؟
بدا مترددا قبل أن يجيب، وكأنه يبحث عن كذبة متقنة في جمجمته الكبيرة:
_ ليست هنا، سافرت لتبقى إلى جانب أرملة خالها..
_ كان عليها إخباري على الأقل.
_ستخبرك حين تعود، وفي هذه الفترة حاول أنت مجارات كاميليا.
عدت إلى البيت بعد يوم طويل، جلست أنظر إلى انعكاسي في شاشة التلفاز السوداء، أنفث الدخان وأراقبه يتلاشى في السقف الأبيض، أشعر وكأن جورج يكذب علي ويخفي شيئا مهما، أيعقل أن تكون ايلين قد هجرتني؟ سخرت من نفسي بسبب تساؤلي

العبيط هذا، مستحيل أن تهجرني بهذه البساطة وكأن شيئا لم يحدث بيننا، ولماذا ستهجرني؟ وماذا يمنعها من ذلك؟ لطالما هجرت الكثيرات من قبل ببساطة ودون سابق إنذار.. سأقتلها لو هجرتني.. عدت إلى الهذيان مرة أخرى، قمت إلى الحمام وتركت المياه الباردة تسيل فوق جسدي المتعب العاري.

في الجلسة الأولى.. كانت كاميليا قد تخلت عن ابتسامتها العريضة واكتفت بنظرات مريحة ومطمئنة إلى حد ما، وكانت تتصرف بجدية واضحة في الوقت الذي كنت أنا أتصرف بغطرسة وأستخف بما تقوم به وبكل ما تقوله من أجل حثي على الاعتراف بأمور تخصني، خصوصا تلك التي تتعلق بطفولتي وماضي ككل، في البداية طلبت مني أن أضع نفسي في حالة يتسنى لي فيها أن ألاحظ نفسي بنفسي، ربما كما كنت أفعل أمام المرآة، لكن هذه المرة بدون أفكار مبيتة، وحثتني على مكاشفتها بكل ما يخطر بخاطري أو يتردد إلى ذهني من مشاعر وأفكار وذكريات، بالترتيب نفسه الذي تتوارد به، ثم حذرتني من أن أستبعد شيئا مما يخطر لي بحجة أنه مقزز أو عديم الأهمية ولا معنى له، كل شيء مهم على حد تعبيرها، وشددت علي ألا ألتفت إلى ما يحدث على سطح وعيي. ثم أشارت في الأخير إلى أن نجاح ما نقوم به رهن بمدى صدقي وثقتي بها.. كنت أعلم جيدا ما طلبته مني لكني كنت مستهترا مما أثار حفيظتها قليلا.. تمددت على الأريكة المريحة قبالة مكتبها الخشبي الكبير، كانت تراقبني بتمعن، أغمضت عيناي لما يقارب النصف ساعة قبل أن أنطق أخيرا:

_ آسف.. لا شيء يتبادر إلى ذهني.

_ حاول مرة أخرى.

_ أنت تتحدثين عن سبعة وعشرين سنة من الذكريات.

_ نعم أعلم، حاول مسايرتي أرجوك.

عدت وأغمضت عيناي الحمراوتين، سرحت أفكر في _ايلين_ التي ملأت تفكيري، وفاة خالها في هذا الوقت مزعج حقا، سنضطر لتأجيل موعد العرس وقد يطول الموعد، ما هذا النحس الذي لازمني فجأة! تذكرت أن كاميليا تنتظر مني جوابا، ولابد لي من إرضاء فضولها ولو قليلا:

_ كان لي صديق فيما مضى، إسماعيل.. كنا مقربين جدا، ذاك النوع الناذر من الأصدقاء، النوع الذي يجعل أهلك يشكون في ميولك الجنسية، كنت وما زلت أحبه، أتحدث عن صداقة حقيقية، لكنه قرر فجأة أن يسلك طريقا آخر، وتركني وحيدا.. لست ألومه طبعا بالرغم أنه كان بالإمكان أن تستمر علاقتنا لكنه حر في اختياراته، وعموما لم يكن الوحيد الذي تخلى عني، لكن غيابه عني في تلك الفترة بالذات أزعجني كثيرا.

صمتت قليلا ثم أردفت:

_ هناك أمور أخرى تتدفق إلى جمجمتي، لكن لا يسعني التصريح بها، أشعر بالخجل لمجرد تذكرها..

بدت منزعجة من تراجعي وعدم احترامي للإتفاق الذي بيننا، تركت مكتبها وجلست بجانبي، أمسكت يدي مما جعلني أقفز من مكاني، لم يكن عليها أن تلمسني هكذا بسهولة وكأنها تعرفني..

_ يجب أن تثق بي.

_ سأحاول غدا، سأنصرف الآن.

بدأت أعتاد الوضع بعد الجلسة الثانية والثالثة، في الحقيقة كان الأمر مسليا جدا، أجبرتني كاميليا على إطلاق العنان لمخيلتي أكثر وأن أتحدث بجرأة أكبر، أخبرتها بعض الأكاذيب عن طفولتي البائسة، بالأحرى بأشياء كنت أتمنى لو حدثت، أخبرتها أن طفولتي كانت جميلة وكان لي أصدقاء كثر، كان أبواي يدعمانني كثيرا ويوفران لي كل ما أحتاجه.. والأصح أن طفولتي كانت صعبة، كنت طفلا منعزلا وأبي كان غائبا طوال الوقت بحجة العمل.. لا ألومه على غيابه ولا ألوم أحدا، لكن كان بالإمكان أن تكون طفولتي أحسن مما كانت عليه، وحتى حياتي بشكل عام.. كانت كاميليا متحمسة أكثر، مما زاد رغبتي في معرفة المزيد عما تسميه هي بالعلاج النفسي، كان حديثها وكأنها تقرأ علي كتابا فلسفيا مهما، دون أن تنسى تذكيري بأن الشرط الوحيد الذي يقتضيه نجاح ما نقوم به، وهو أن أقول كل ما يرد إلى ذهني.. حتى ولو كان جارحا

لمشاعري..

مع توالي الجلسات، بدأت أرضخ لرغبتها وصرت أكثر جرأة في البوح.. أخبرتها عن علاقاتي الجنسية المتعددة بالتفصيل الممل، لا أدري لماذا أجبرتني على الحديث عنها، كانت متحمسة لسماع مغامراتي المحرمة مع حواء، مما زاد من حيرتي وبدأت أشك في نواياها الحقيقية، فقد تجرأت وعاودت ملامسة يدي، صرخت في وجهها هذه المرة: لا تحاولي الإقتراب مني مرة أخرى، أنا شخص مرتبط ولا تحاولي إغرائي.. هددتها بمقاطعة الجلسات في الوقت الذي كنت أنوي إخبارها عن الوساوس التي تؤرقني كل يوم بالرغم من أنني أتناول الأدوية التي وصفتها لي في البداية..

اعتذرت على تصرفها الغير اللائق، لم يكن أمامي سوى قبول اعتذارها، كنت عاجزا أمام ابتسامتها الساحرة، أخبرتها عن الأفكار المشوشة التي تطاردني في الآونة الأخيرة، كانت متفهمة وأعفتني من الحديث عن الماضي الأسود وطلبت مني أن أبدأ الحديث عما حدث معي منذ قدومي لتركيا، لكن بصدق ودون التهرب كما اعتدت أن أفعل.

_ لا تغفل شيئا، فنحن نلعب على الجزئيات البسيطة ..

هززت رأسي كإشارة بأني فهمت قصدها ثم بدأت البوح المشوش:

_ أعتقد أن الأقدار كانت بجانبي في البداية التي كنت أعتقد أنها ستكون صعبة، خصوصا على شخص غريب مثلي لا يعرف أحدا بعد، لكن ولله الحمد أموري كانت سلسة بل أفضل مما كنت أتوقع بكثير، العجوز مسعود كان وجه السعد علي، كان سندي الأول هنا في اسطنبول، لكنه توفي رحمه الله وحزنت كثيرا لفقدانه، لكن لحسن حظي كنت قد تعرفت على ايلين أميرتي الجميلة قبل وفاته.. كانت بمثابة مصدر قوة لي، بدعمها وتشجيعها لي استطعت أن أستقر ولو معنويا على الأقل، ثم تعرفت على والديها من خلالها وبهذا حصلت لي على أسرة رائعة.. اعتبروني واحدا منهم ولم يبخلوا علي بشيء قط، لكن...

_ لكن ماذا؟

_ لا أدري كيف أصيغ لكي الأمر، أنا مشوش للغاية.

_ تنفس بعمق وحاول مرة أخرى.

_ في الآونة الأخيرة، بدأت ألاحظ بعض التغييرات في طريقة تعامل الجميع معي، حتى الغرباء منهم.. يبدوا أن الجميع قد سئم ومل من تواجدي فجأة.. أحيانا أتساءل إن كانت هذه طبيعة الأتراك.. حاولت فهم هذا التغيير الطارئ لكني لم أستطع.

_ حسنا لما لا نتوقف عند هذا الحد ونكمل غدا.

_ حسنا.

حاولت الاتصال با ليلين لكن هاتفها مازال مغلقا، حسنا أيتها المجنونة، كما تشائين، سأتوقف عن الاتصال إلى حين عودتك وسنتفاهم جيدا.. توجهت إلى المقهى الذي التقينا فيه أول مرة، جلست في نفس الطاولة وطلبت نفس الطلب، حولت نظري نحو الشاشة المعلقة أمامي، نفس الأخبار الذي تذاع دائما، حروب و انفجارات بالجملة، لفت انتباهي أن الانفجار الذي كانوا يتحدثون عنه في النشرة حدث في أنقرة منذ أسبوع تقريبا.. خفق قلبي حتى جف لساني، حاولت أن أتناول كأس الماء فأوقعته أرضا وأحدث صوتا مزعجا جعل الأعناق تشرئب نحوي، تنملت العروق في ساقاي المرتعدتين، ايلين كانت في أنقرة، أيعقل أنها أصيبت وأخفوه عني؟ أيعقل أنها الآن في المستشفى وليس في جنازة خالها؟ لكن مستحيل أن يكون هذا صحيحا، فقد كانت برفقتي وعدنا معا إلى اسطنبول.. كان النادل ينظر إلي باستغراب، شعرت بالحرج واعتذرت:

_ سأدفع ثمن الكأس.. أنا آسف.

_ لا عليك، هذا يحدث دائما.

_ هل لي بكاس آخر من فضلك؟

تناولت الكأس بيدين مرتعشتين ثم توجهت إلى الحمام، غسلت وجهي بالماء البارد فهدأت قليلا.. دفعت ثمن القهوة وخرجت أبدد قلقي وسط شوارع اسطنبول، توقفت قليلا علني أهتدي إلى مكان يهدئ من روعي، فكرت في المسجد، لكن ملابسي لم تكن مناسبة، ما الذي سيوقف هذا السيل الرهيب من الأفكار التي تقتلني، الخمر ؟ لا مستحيل..

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءا حين وجدت نفسي أجلس في ملهى ليلي، المكان صاخب جدا، وهذا جيد لأنه يلهيني عن التفكير، رحت أتأمل وأتسلق أجساد الأتراك وهم يرقصون ويضحكون.

_ فودكا لو سمحت.

وضع الكأس أمامي بسرعة لافتة، تبادلنا النظرات، ارتشفت منه القليل، ماذا أفعل هنا؟ هل سأعود إلى إدماني القديم؟ ألم أجد غير هذا المكان؟ أزعجتني أسئلتي التي لا تنتهي فارتشفت الكأس دفعة واحدة، وطلبت آخر.. خمسة كؤوس من الفودكا القوية جعلتني أتوغل وسط الحشود وأرقص كالمجنون، التركيات الجامحات مغريات جدا برقصهن المحترف، لا أدري كيف يستطعن تحريك أجسادهن بهذه الرشاقة، وأنا بالكاد أستطيع تحريك يداي.

قررت العودة أدراجي قبل أن أفقد السيطرة وأنام في الشارع كما كنت أفعل في الرباط.. لم أتمكن من تغيير ملابسي ولا حتى خلع حذائي فنمت كما كنت حتى الصباح..

اهتز الهاتف في جيبي فأفزعني، قفزت من مكاني، أخيرا تذكرتني، أخرجت الهاتف بصعوبة من جيبي:

_ ألو _ايلين_ ؟ أين أنت؟ كيف حالك؟

_ أنا كاميليا.

_ آه.. آسف لم أنظر إلى الشاشة وأنا أجيب.

_ إنها العاشرة، ألن تأتي اليوم.

_ بلى بلي أنا قادم.

_ حسنا، لا تتأخر أكثر.

قمت إلى الحمام، غسلت وجهي الذي بدا متعبا وشاحبا، مازلت أعاني من أثار الشراب، آمل ألا تنزعج كاميليا.. تناولت القهوة وارتديت ملابس نظيفة وذهبت لحضور الجلسة ما قبل الأخيرة..

_ آسف على التأخير، لم أنم جيدا ليلة البارحة.

_ لابأس تفضل، أنا كذلك تأخرت بسبب الازدحام الملعون.

_ تبدين متوترة اليوم.

_ صحيح أنا متوترة قليلا.

_ .....

_ نبدأ؟

_ حسنا

أغمضت جفناي، لم أستطع التفكير في أي شيء، أحس بصداع قوي في الجهة اليسرى من رأسي، لكني تجاهلته، طال صمتي فقاطعتني كاميليا:

_ في المرة السابقة قلت أنك بدأت تشكك في تصرفات الناس من حولك، أتمم

_ نعم، كل شيء كان مختلفا، أحس بأن السيد جورج وزوجته يكذبان علي ومتأكد أنهما يخفيان عني شيئا ما، ولا أدري لماذا يمنعان ايلين من مقابلتي.. كما أن السيد عمر مديري ينوي صرفي من العمل، لكنه لم يجد الطريقة المناسبة لإخباري وجها لوجه، وإلا لما أعطاني إجازة أخرى؟ ثم ظهرت أنت فجأة، لا أفهم لماذا طلب منك السيد جورج القيام بهذا.

_ منذ متى وأنت تلاحظ هذه التغييرات؟

_ عفوا!

_ منذ متى بدأت تصرفاتهم تتغير، بالأحرى تصرفاتنا بما أنك تعتبرني واحدة منهم.

كان سؤالها مفاجئا.. لم أفكر في هذا من قبل، وقفت في الحال أداعب لحيتي في محاولة للتذكر، فكرت في آخر مرة رأيت فيها ايلين ... آه نعم تذكرت:

_ كان ذلك قبل أسبوع تقريبا، حين اتصل بي السيد جورج وطلب مني أن ألتحق بهم في أنقرة.. ايلين كانت منشغلة بأمر امتحاناتها حينها.

_ اتصل بك بعد يوم من الانفجار إذن.

_ نعم على ما أعتقد، فقد كان رجال الأمن في كل مكان يومها.

_ وماذا كان يريد منك جورج؟

_ لا شيء وهذا ما زاد من حيرتي، كان يتصرف بغرابة هو وزوجته التي كانت تبكي، أخبرني أن ...

جمدت مكاني ولم أستطع أن أكمل ما قاله جورج في ذلك اليوم، وضعت يداي فوق رأسي وبقيت جامدا لما يقرب الدهر.. فقدت الإحساس بالوقت، توقفت الحياة، توقف التنفس وتوقف النبض، توقف الدم.. توقف كل شيء. حينها استوعبت و اكتشفت أن ايلين قد ماتت حقا! قتلت في ذلك الانفجار اللعين.. كنت واهما طوال هذه الفترة، كنت أعيش في الخيال مدعيا أنها ما تزال حية وأن الجميع كانوا يخادعونني ويتآمرون ضدي..

اقتربت مني كاميليا بهدوء، كنت قد فقدت الإحساس حينها، عانقتني وأخبرتني أنني كنت أعاني من حالة نفسية أقرب إلى ما يسمونه بالبرانويا، وهي مرض نفسي يجعل المريض يعيش بعيدا عن الحياة الواقعية نتيجة صدمة حلت به، ويقرر دماغه أن يعيش حياة أخرى ويصورها له كما يشاء، ويظهر للعيان كأنه مجنون دون أن يعي ذلك.. لم أستوعب ما كانت تقوله، استأذنتها وعدت إلى البيت.

عدت أدراجي، خرجت مكسوفا من الباب متلكئ الخطى، متشتت البصر، قادني التيه صوب عامود كهربائي وتكومت تحته، كان جسدي منهوكا بلا رغبات ولا مقاصد، وضعت رأسي الثقيل بيت راحتي يدي، تنمل يصعد أسفل الظهر ويصعد عبر العمود الفقري فيحاصرني سيل من الغثيان.. جلست مطولا متكئ على العمود قبل أن أرمي نفسي في سيارة الأجرة التي رمتني بدورها على عتبة البيت.. وهناك بكيت طويلا.

استفزتني صورة ايلين المعلقة في الحائط، أحسست بدمائي تغلي، شعرت بغضب شديد، كسرت الطاولة الزجاجية التي كانت أمامي بقبضة يدي، ثم أرسلت كأسا وكسرت به التلفاز الكبير، أصبت بحالة هستيرية فرحت أكسر أي شيء يظهر أمامي كثور هائج،

قلبت المطبخ رأسا على عقب، أخذت سكينا كبيرا ورحت أطعن الأريكة بعنف، كسرت أصابعي وضربت رأسي مع الحائط حتى نزفت جبهتي، ثم دفعت بجثتي في السرير وغبت عن الوعي.

لازمت الفراش لثلاثة أيام متواصلة، ولولا تدخل السيد جورج لطالت المدة.. كانت الدماء قد جفت في جبهتي، وثيابي مبللة تماما بالبول الذي كان يخرج قسرا ولم أمنعه، قام جورج بجري من كتفي بقوة ورماني في الحمام، كان يغمغم شيئا لكني لم أتمكن من سماعه جيدا، كان يصرخ في وجهي بينما أنا في صمت رهيب، فتح رشاش الماء البارد من فوقي وخرج، لم أشعر بشيء، بقيت ممددا في أرضية الحمام والماء يسيل فوق جسدي الذي لم يعد جسدي.. عاد جورج ووجدني مازلت في مكاني، أزال معطفه ورماه بعنف في الأرض..

جردني من ملابسي التي تفوح منها رائحة البول المقززة، لم أخجل كوني صرت عاريا أمامه، لم أبالي، كنت كجثة هامدة، مما جعله يصفعني بقوة ثم انهار هو الآخر على الأرض، جلس بجانبي والماء يسيل علينا نحن الاثنين، بدأت أستوعب ما يحدث، شعرت بالخجل من نفسي، وضعت رأسي فوق ركبته، وبدأت أبكي، حاول هو الآخر ألا يبكي لكنه استسلم حين أحس بدفء دموعي تسيل فوق ركبته، بكينا في صمت قاتل.

انتفض بعد ذلك من مكانه وأمرني أن أغتسل دون أن ينظر إلي، قال أننا سنزور قبر الين، تذكرت أنني لم أحظر جنازتها فوقفت بسرعة، غسلت جسدي النثن، وارتديت ملابس نظيفة.. كان جورج قد أعد بعض البيض وكأسا من الحليب الساخن وأجبرني على تناولهما. عدنا إلى منزله حتى يغير ملابسه التي تبللت. مرة أخرى لم أستطع منع الدموع، حين التقت نظراتي المنكسرة بنظرات السيدة نوال التائهة، المسكينة كانت هزيلة كشبح متعب، عانقتها وبكت هي كذلك.

تحسرت كثيرا على عدم حضوري لجنازتها، ليتني كنت قويا ورأيتها للمرة الأخيرة.. لكني كنت أعلم يقينا أنني لن أقوى على رؤيتها ترقد وحيدة في قبرها، لن أتحمل رحيلها بهذه البساطة ودون سابق إنذار، أعلم أني كنت سأنوح كالأرامل، سأرتمي بجانبها في القبر، سأترجاهم أن يدفنوني معها، سيعتقدون أنني مجنون وسيرفضون، سأصرخ في وجوههم: ألا ترون أنني أنا كذلك ميت، أنظروا في عيناي، أليست خالية من الحياة؟ أرجوكم ادفنوني معها، أرجوكم. تمنيت حقا لو لم تتدخل كاميليا ولم تعدني إلى رشدي، تمنيت لو بقيت واهما أو مجنونا حتى، تمنيت لو قاومت أكثر ولم أستسلم للحقيقة المرة. لكن الأوان قد فات الآن، فهاهي أمامي، تنام في

قبرها الهادئ وتركتني أصارع الكوابيس في قبري الصاخب.
تركت السيد جورج وزوجته في المقبرة وتوجهت إلى مسجد قريب، دخلت بدون وضوء جلست وصرخت دون أن أبالي لنظرات المصلين:
لما كل هذه القسوة يا إلهي؟ ما الذنب الذي اقترفته حتى يحدث لي هذا؟ لقد ظننت أننا قد تصالحنا، وها أنت تغدر بي مجددا! ماذا كان سيحدث للعالم لو بقيت حية ولم تأخذها؟ فلماذا أخذتها؟ لماذا يا الله لماذا؟ أنت تعلم أنك بهذا ستجبرني على القيام بأمور لن ترضاها أنت! أنت تعلم أنني لن أقوى على العيش بعد هذا..
حاول بعض بعد المصلين تهدئتي، كنت غاضبا بشدة، وكنت أعلم جيدا أن غضبي هذا لذنب عظيم، لكني لم أستطع مقاومة الشيطان الذي ركبني وجعلني أقول تلك الأشياء. أنبني ضميري وخرجت مسرعا من المسجد..

عدت إلى البيت الذي كان في حالة يرثى لها، لم أعد ترتيبه، اكتفيت بالجلوس في الأريكة، أدخن في صمت قاتل، سيجارة تلو الأخرى، بقيت في تلك الحالة طوال ليل طويل أصارع الأفكار الخبيثة في جمجمتي الهشة.

مع وفاة ايلين غدت تركيا قيثارة لم أعد أستطيع العزف على أوتارها المتشابكة، استوعبت الدرس جيدا، خضت التجربة من أوسع أبوابها، وعلي الآن أن أعد نفسي للرحيل.

كان لابد أن أعتذر أولا من الأشخاص الذين كنت أشك في نواياهم، فقد ساعدوني كثيرا واستحملوا حماقاتي وهذياني.. زرت كاميليا أولا، واعتذرت عن تصرفاتي الصبيانية، تقبلت اعتذاري بابتسامة عريضة كعادتها، وقالت أنها كانت تتوقع أن يحدث ما هو أسوء كما يحدث مع بعض مرضاها، لكن لحسن الحظ نجحنا في التخلص من تلك الأوهام بأقل الأضرار، لم أكن لأسمح لنفسي لو تسببت لها بأي ضرر، تلك المرأة الأنيقة الجميلة التي كان همها الوحيد هو مساعدتي دون أن تنتظر شيئا في المقابل.. ودعتها قبل أن تكشف عن نواياي بذكائها الثاقب.. توجهت إلى المكتبة، كان السيد عمر سعيدا برؤيتي، ذلك الرجل المثقف الذي منحني عملا مناسبا دون أن يجبرني على حلق لحيتي أو رأسي، ولم يلزمني بملابس خاصة، بل تركني أعمل بكل حرية، والأهم من ذلك أنه رافقني لخطوبة ايلين رحمها الله.. شعرت بالخجل لكوني شككت في تصرفاته ونواياه فاعتذرت.. ربت على كثفي وسلمني مبلغا من المال ونصحني بأن أسافر لمكان ما حتى أهدأ وأعود للعمل، لكني

رفضت، لم أعد بحاجة إلى المال الملعون، فتذكرة سفري المقبل مجانية، ولا حاجة لي بالمال.

كنت أتصرف وكأني اتخذت قراري مسبقا، القرار الذي لا رجعة فيه، ولو من الجحيم عبر الجحيم، تماما كالقرار الذي اتخذته قبل قدومي إلى هنا، سأرحل مرة أخرى لأني أعلم في قرارة نفسي أن ذاكرتي الملعونة لن تتركني أعيش في سلام بعد الآن، اعتقدت أنني اقتربت من التخلص منها كليا، لكنها أحيت نفسها مجددا، وهذه المرة ستحيا بعنف ولن تستسلم مهما حاولت.

يبدوا الأمر واضحا الآن، حياتي وما انقضى منها من أعوام، إنما هي لعبة من لعب القدر، ربما لعبة على شكل عربة، عربة تحمل لحمي وعظام أيامي إلى حيث لا أعلم، ليس لأنني بقيت منحطا بين فكي ذلك الوطن الغريب لمدة تصل إلى خمسة وعشرين سنة، ولكن ربما لأني مغلوب على أمري، ربما لأني مجرد عبد ضعيف لا يقوى على مواجهة قدر مجهول.. لكن إن كنت لا أستطيع مواجهته بإمكاني إيقافه حتما.

لم يتبقى لي سوى أن أودع صهراي، سأضطر لأكذب عليهما كما كذبت على الآخرين، سأكذب لأني أعلم جيدا أنهم لن يفهموا أن ما سال ومازال يسيل من عيناي ليس دموعا إنما الرغبة، الرغبة في

الحياة هي التي سالت وجفت.. سأكذب لأني لا أريد شفقة أحد، أعلم أنهم سيشفقون علي، سيقولون أن ما مررت منه صعب لكن يجب أن أكون قويا وأتعايش مع الوضع وأنسى، أنا لا أريد أن أنسى، لا أريد أن أتعايش، أريد أن أضع حدا لهذه المهزلة، لقد اكتفيت من هذه الحياة.

حان الوقت لأترك مكاني لشخص آخر، آملا ألا يكون حظه عاثرا كحظي، سأترك له مقعدي في كل مكان، في القطار، في السينما، في المسرح، في الحديقة، على جنبات البحر، حتى في المستشفى، في كل مكان... سأترك له نصيبي من الأكسجين، فهو لم يعد يكفيني لأعيش، بل يخنقني يوما بعد يوم.. سئمت التنفس وسأكتفي بهذا القدر. يقولون أن الحياة عبارة عن امتحان، ها أنا إذن أجمع أوراق امتحاني فانتظار تسليمها للمراقب، سبعة وعشرون سنة كانت كافية لأجيب على أكبر قدر من الأسئلة، سأسلم أوراقي متمنيا ألا أعيد الامتحان مرة أخرى، سأسلمها ولن أنتظر النتيجة، لا تهمني النتيجة كيفما كانت.. أعلم أنني بهذا سأضرب بعض الحقائق المهمة عرض الحائط، وأني سأكون عرضة للسخرية، لكني لا أبالي ولا أتوقع أن أحدا سيفهمني ويحيا حقيقة بواعثي.. ولا أبالي حتى إن فهمني أحدهم، لكل منا حياته فليصنع بها ما يشاء، أما بالنسبة لي

فكل شيء ذبل وسقط، ولن تنفع أي شفقة ولا كلمات لإعادته إحيائه.. انتهى كل شيء.

تناولت آخر عشاء مع صهراي الكئيبين، فقد جورج حسه المرهف، وفقدت السيدة نوال نشاطها المعتاد.. أخبرتهما أنني سأعود إلى وطني وإلى أهلي، فكل شيء هنا يذكرني بإلين. . ايلين التي كانت كالقشة التي قسمت ظهر البعير، ما أحمله بداخلي وما حاولت تجاهله لسنوات عدة ظهر فجأة كسيل من اللافا البركانية التي أذابت كل شيء، لن أستطيع الهرب بعد الآن، فقد نلت من الحياة ما يكفي.

طبعا لن أعود إلى ذلك الوطن الذي أصبحت غريبا عنه، لاشيء هناك يستحق أن أعود إليه، لن أقبل أن أكون عرضة لنظراتهم التي ستقول أن الغريب قد عاد كما كان متوقعا، عاد فوجد الجدران قد تغيرت، عاد والعيون تتأمله وتتساءل ما الذي أعاده؟ لن أعود ولن أسمح لأبي بأن ينتفض من مكانه ووجهه تعلوه ابتسامة الجوكر ويهمس في أذن أمي: ألم أقل لك أن الحمار سيعود جارا أذيال الخيبة؟

لن أعود.

ودعت المسكينين وودعت معهما آخر شيء يربطني بإسطنبول، ثم عدت لأقضي آخر ليلة لي في بيتي.. في الطريق عرجت على المقبرة، وقفت أمام قبر ايلين طويلا، لم أقل شيئا، كنت كقبر يقف على قوائم من خشب، والصمت يعبرني ويتجه حيت لا أشتهي، دارت بي الأرض في غفلة من السماء فغزت رعشة قوية أطرافي.. تنهيدة تلو الأخرى كانت كافية لأقول كل شيء.

في البيت، جلست أدخن وأنتظر الصباح، توقعت أنه سيأتي ببطء شديد، سيتأخر لكي يجبرني على التنازل عن قراري، لكنه سيفشل حتما.

حل الصباح، اتصلت بمالك البيت، سلمته مفاتيحه وتركت له كل شيء، الأثاث والأواني، والكتب وحتى ملابسي.. لم أحمل معي سوى حقيبة صغيرة تحوي جميع أوراقي الخاصة من جواز سفر وبطاقة تعريفية وغيرها. أما الوجهة فقد كانت محطة القطار، سألت عن أبعد مدينة عن اسطنبول، أخبروني أن القطار المتوجه إلى هناك سينطلق بعد ثلاثة ساعات، لا يهم، دفعت ثمن التذكرة وتوجهت لأقرب حانة من المحطة، جلست ساهما في انتظار أن تمر الساعات الثلاث.

الخامسة عصرا، نزعت وجهي ووضعته في جيب معطفي الأسود، وانطلقت في الاتجاه الممنوع.. الضمير يصرخ، ينوح ويترجى، انطلق في مطاردتي بين غرف القطار الضيقة، ولما فشل في ملاحقتي نصب لي كمينا داخل مراحيض المحطة، وداخل الأحياء وعلى جنبات الطريق، لكني فطنت لذلك، وأعدت وجهي إلى مكانه الأول، رغم أنه كان شفافا من كثرة الأحزان، كعجلة قديمة هتكتها التضاريس الوعرة.

وصلت إلى وجهتي، مدينة صغيرة نسيت اسمها في الطريق، لا يهم اسمها ولا من يسكنها، المهم أنها ستكون القاعدة التي سأنطلق منها إلى وجهتي، إلى المجهول.

نزلت في فندق بسيط، أخبرت القائم عليه أنني نسيت حقيبتي التي تحوي أوراقي الثبوتية في القطار، وسأكون ممتنا لو أعطاني غرفة حتى أستعيد حقيبتي وأسلمه الأوراق، بدا مترددا، لكن سرعان ما تغيرت ملامحه ووافق على تسليمي مفاتيح الغرفة حين دسست ورقتين نقديتين مهمتين في جيبه، لا شيء يضاهي المال في لعبة الإقناع، استلمت المفاتيح وأخبرته أني متعب ولا أريد أي إزعاج.

وقبل قدومي إلى الفندق كنت قد عرجت على محل تجاري واقتنيت بعض الأغراض التي سأحتاجها في رحلتي القريبة، آلة حلاقة، عصير

ليمون وسيجارة واحدة.

دخلت الغرفة، أدرت المفتاح من الداخل، لم أبالي لتفاصيلها ولا للونها، تجردت من ملابسي باستثناء بالداخلية منها..

في الحمام حلقت شعر رأسي وتخلصت من لحيتي، أصبح منظري مضحكا جدا، في المرآة يظهر مخلوق غريب لا أعرفه، ومستحيل أن يتعرف علي أقرب الناس إلي وأنا بهذا المنظر، تغيرت ملامحي بشكل فضيع، لم أكن أعلم أن وجهي صغير إلى هذا الحد، وأن أذناي كبيرين.

استحممت وجمعت الشعر المرمي على الأرض وجعلت الماء يجرفه بعيدا عبر ثقب المرحاض، كان قصدي مبهما، وكانت أفكاري تسبقني نحو المجهول، لكني كنت مستعدا لخوض تجربة غامضة قد أندم عليها وقد لا أفعل.

أحرقت جميع أوراقي التبوثية، أنا الآن مجهول كليا، أنا الآن مجرد مخلوق فضائي سقط بالخطأ في كوكب الأرض، مخلوق تائه، كل همه هو العودة إلى وطنه الأصل.

أعددت ترياقي السحري، الترياق الذي سيرسلني مجانا إلى وجهتي، وضعته فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، تمددت في هدوء، أشعلت السيجارة التي بدت لي مغرية كجسد امرأة فاتنة، داعبتها

طويلا بشفتاي الجافتين قبل أن أرمي ما تبقى منها ليرتطم بالحائط المقابل للسرير لينتج عن ذلك رذاذ مشتعل ثم انطفئ بسرعة.
حولت نظري نحو الترياق الذي كان ينتظرني بفارغ الصبر، خيل لي أنه يحدثني: لا تخف أنت بأمان معي.
لم أكن لأغادر دون أن أترك للعالم شيئا يتذكرني به، شيئا غامضا، فقبل ارتشافي للترياق قمت وحفرت في حائط الغرفة:

غادرت هذا العالم كما دخلته .. حزينا

رواية "الهروب" هي بطاقة هوية لشاب، وجرس إنذار للجميع..

هذا أول ما طبعته سطور الرواية في ذهني بعد أن وصلت إلى فصلها المأساوي الأخير.

إنها صرخة جيل كامل، عجز عن الخروج من دائرة العطالة، ولايزال يرى شعاع الأمل قادما من وراء الحدود. عندما نطمئن لانخفاض منسوب الصور التي كانت تفضح قوارب الموت التي تقود الشباب إلى حتفه، تماما مثلما تسير الفراشات إلى محرقتها وهي تتبع شعاع الضوء، يزعزع الراوي اطمئنانا، ويخبرنا أن قوارب الموت لا تزال بخير. هي فقط وجهة الفراشات التي اختلفت، أما احتراقها فهو لا يزال مستمرا أمام مرأى وطن هو في أمس الحاجة لأجنحتها ولبهائها الذي يذوي بلا ثمن.

شباب يهرب إلى الحانات والتيه الذي لا نهاية له، أو ينسل إلى بطن الغول، ليصبح يدا لبطش الارهاب، أو يغادر إلى تركيا، ويقطع كل صلاته بالوطن..أو يعيش أحلاما بلا نهاية بهروب قد يكون في نعش، قد يكون بتذكرة إلى أمريكا للهجرة الأبدية...

وإن كانت كل هذه التجليات للهروب، عاشها بطل واحد، هو"زياد" بطل الرواية، الا أنها في الحقيقة صور لجيل كامل، يشعر أنه منبوذ، ولا يثق كثيرا أن أحدا سيصل إلى حقيقة مشاعره، لذا يرفع الكاتب منذ البداية إيقاع الغضب في مانفيستو يفتتح به روايته ويقول فيه "مشاعرنا وأحاسيسنا نحن المنبوذون، أبشع من أن تصفها الكلمات في رواية أو حتى في قصيدة."

لتبدأ الرواية بدوائر لا نهائية من التيه، في الرباط، تلك المدينة القاسية. ويتشتت التيه بين الحافلة (الحياة)، والمقهى، والبحر..يأتي الحلم بالثورة عابرا، ليس من أجل غد أفضل، ولكن لتتساوى الخسائر،أو ليخسر الرابحون في هذا الواقع المزري.

في قمة اليأس يأتي الأمل الكاذب أكثر من مرة، على هيأة حلم، أو وعد بطريق أسوأ من الطريق الحالي. وقد يتجلى الأمل في طيف امرأة تظهر وتختفي، أو في حمل مفاجئ بطفلة تجهض بقسوة، وتبقى مجرد ذكرى أليمة، أو خسارة تضاف إلى بقية الخسارات.

حتى بعد الهروب إلى تركيا، يواصل القدر لعبته مع شاب يائس. يعطيه مؤنسا، وان كان عجوزا، لكنه يختطفه دون سابق انذار، بموت سريع. ويعطيه حبا، وأسرة بديلة، وينتهي كل شيء في عمل ارهابي يختطف"إيلين"، أمله الجميل والأخير.

وتنتهي الرواية بلا أمل، وبقرار قاسي بالهروب إلى أبعد نقطة، إلى ما وراء هذا العالم. دون أن ينسى البطل، ترك بيان إدانة على جدار الزمن كتبه باختصار: "غادرت هذا العالم كما دخلته..حزينا"

مريم التيجي

9 789954 638965